جلفر في
الجزيرة الطيارة

كامل كيلاني



جَلِفَر فِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ

الرحلة الثالثة

تأليف

كامل كيلاني



جَلِفَر فِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٦٩٩١
تدمك: ٣ ٠٣٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

المحتويات

مُقَدِّمَةٌ

بقلم كامل كيلانى

أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ:

قَرَأْتَ الرِّحْلَتَيْنِ: الْأُولَى وَالثَّانِيَةَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمُمْتِعَةِ السَّاحِرَةِ بِشَغَفٍ وَشَوْقٍ لَا مَثِيلَ لَهُمَا، وَكَانَ لَكَ فِي قِرَاءَتِهِمَا أَبْلَغُ دَرْسٍ وَأَبْدَعُ تَسْلِيَةٍ، كَمَا كَانَ لَكَ فِي خَيَالِ الْقِصَّةِ وَعِظَاتِهَا بَهْجَةٌ وَعِبْرَةٌ. وَأَنَا أُوصِيكَ أَنْ تُعِيدَ تِلَاوَةَ مَا قَرَأْتَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى؛ فَإِنَّكَ وَاجِدٌ مِنَ الْمُتْعَةِ وَالْعِظَاتِ مَا يُنِيرُ طَرِيقَ الْحَيَاةِ وَيَكْشِفُ لَكَ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَحَقَائِقَهُم الْمَسْتُورَةَ عَنْكَ. وَسَتَرَى — كُلَّمَا تَقَدَّمَتْ بِكَ السِّنُّ — مَعَانِيَ جَدِيدَةً لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا عَهْدٌ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْرِصُ — أَشَدَّ الْحِرْصِ — عَلَى تَعَرُّفِ رَأْيِكَ فِيمَا قَرَأْتَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَثَرِهِ فِي نَفْسِكَ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ رَأْيَ غَيْرِكَ، وَاطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ.

فَلَمَّا رَأَيْتُكَ تَتَعَجَّلُ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ وَتُلِحُّ فِي طَلَبِهَا إِلْحَاحًا مُتَوَاصِلًا، أَيْقَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الرَّائِعَةَ قَدْ وَقَعَتْ مِنْ نَفْسِكَ بِحَيْثُ قَدَّرْتُ لَهَا، وَرَأَيْتُ فِي سُرُورِكَ وَرِضَاكَ أَحْسَنَ مُكَافَأَةٍ لِي عَلَى مَا بَذَلْتُ فِي تَرْجَمَتِهَا مِنْ جُهْدٍ وَعَنَاءٍ.

وَحَسْبِي جَزَاءً عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْمُضْنِي الشَّاقِّ أَنْ أَرَى هَذِهِ الْقِصَصَ السَّاحِرَةَ تَفْتَحُ ذِهْنَكَ لِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَعِبَرِهَا وَمُثُلِهَا الرَّائِعَةِ؛ لِيَسْهُلَ عَلَيْكَ أَنْ تُطَبِّقَهَا

عَلَى مَا تَرَاهُ مِنْ أَمْثَالِهَا فِيمَنْ تَعْرِفُ وَتُصَاحِبُ، وَفِيمَا تَرَاهُ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَقَعُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِكَ السَّعِيدَةِ.



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

الرِّحلَةُ إلَى لابُوتَا

(١) دَوَاعِي السَّفَرِ

لَمْ يَمُرَّ عَلَى رِحْلَتِي الْمَاضِيَةِ عَامَانِ حَتَّى جَاءَنِي الرُّبَّانُ «غليوم روبنسن»، وَكَانَ رُبَّانَ سَفِينَةِ «الرَّجَاءِ الصَّالِحِ» الَّتِي تَحْمِلُ ثَلَاثَمِائَةِ طُنٍّ. وَقَدْ كُنْتُ — مِنْ قَبْلُ — طَبِيبًا جَرَّاحًا فِي سَفِينَةٍ هُوَ رُبَّانُهَا، وَسَافَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ إِلَى الشَّرْقِ، فَاتَّخَذَنِي الرُّبَّانُ لَهُ صَدِيقًا، بَلْ جَعَلَنِي بِمَنْزِلَةِ الشَّقِيقِ. فَلَمَّا عَلِمَ بِعَوْدَتِي جَاءَ يَزُورُنِي، وَأَبْدَى سُرُورَهُ وَابْتِهَاجَهُ إِذْ أَلْفَانِي عَلَى صِحَّةٍ حَسَنَةٍ، وَأَعْرَبَ لِي عَنِ اعْتِزَامِهِ الْقِيَامَ بِرِحْلَةٍ إِلَى الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ بَعْدَ انْقِضَاءِ شَهْرَيْنِ.



وَقَالَ: إِنَّهُ لَيَسُرُّهُ أَنْ أَكُونَ طَبِيبَ سَفِينَتِهِ وَجَرَّاحَهَا، وَذَكَرَ أَنَّ فِي سَفِينَتِهِ جَرَّاحًا آخَرَ، وَاثْنَيْنِ مِنَ الْمُمَرِّضِينَ، وَقَدِ اخْتَارَهُمْ جَمِيعًا لِمُعَاوَنَتِي فِي عَمَلِي، وَوَعَدَنِي بِمُضَاعَفَةِ الْأَجْرِ الَّذِي كُنْتُ أَتَقَاضَاهُ مِنْ قَبْلُ.

(٢) جَوَازُ السَّفَرِ

وَلَمَّا كَانَ وَاثِقًا مِنْ خِبْرَتِي وَمَرَانَتِي عَلَى السِّيَاحَاتِ الْبَحْرِيَّةِ جَعَلَنِي رُبَّانًا مُسَاعِدًا لَهُ، وَوَكِيلًا نَائِبًا عَنْهُ، وَأَسَرَنِي بِلُطْفِهِ الْجَمِّ وَأَدَبِهِ الْعَالِي. وَرَأَيْتُهُ رَجُلًا شَرِيفَ النَّفْسِ، صَادِقَ الْقَوْلِ؛ فَأَثَّرَ فِي نَفْسِي أَيَّمَا تَأْثِيرٍ، وَأَجَبْتُهُ إِلَى طِلْبَتِهِ، وَكُنْتُ — عَلَى مَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ فِي رِحْلَتَيَّ السَّابِقَتَيْنِ — مَشْغُولًا بِالْأَسْفَارِ.



وَكَانَتِ الْعَقَبَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَعْتَرِضُنِي، هِيَ الْحُصُولُ عَلَى إِذْنٍ مِنْ زَوْجَتِي بِالسَّفَرِ، وَكُنْتُ أَخْشَى أَلَّا تَأْذَنَ لِي بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهَا — عَلَى الْعَكْسِ مِمَّا قَدَّرْتُ — قَدِ ارْتَاحَتْ إِلَى هَذَا الِاقْتِرَاحِ، لِمَا يُصِيبُهُ أَوْلَادُنَا مِنْ فَائِدَةٍ.

(٣) فِي عُرْضِ الْبَحْرِ

أَقْلَعَتْ بِنَا السَّفِينَةُ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ شَهْرِ أغسطس عَامَ ١٧٠٨م، وَأَدْرَكْنَا «سان جورج» فِي أَوَّلِ أبريل سنة ١٧٠٩م، وَلَبِثْنَا بِهَا ثَلَاثَةَ أَسَابِيعَ، لِإِرَاحَةِ الْبَحَّارَةِ، إِذْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مَرْضَى.

ثُمَّ أَبْحَرْنَا إِلَى «تونكين» حَيْثُ رَغِبَ الرُّبَّانُ فِي أَنْ نَقِفَ بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ تَسَلُّمَ الْبَضَائِعِ الَّتِي يَرْغَبُ فِي شِرَائِهَا إِلَّا بَعْدَ شُهُورٍ عِدَّةٍ.

وَلِكَيْ يَصْرِفَ عَنْ نَفْسِهِ سَأَمَ الِانْتِظَارِ، اشْتَرَى سَفِينَةً شَحَنَهَا بِمُخْتَلِفِ الْبَضَائِعِ الَّتِي يَتَّجِرُ فِيهَا أَهْلُ «تونكين» عَادَةً مَعَ الْجَزَائِرِ الْمُجَاوِرَةِ، وَجَعَلَ فِيهَا أَرْبَعِينَ رَجُلًا، مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ، وَاخْتَارَنِي لِهَذِهِ السَّفِينَةِ الصَّغِيرَةِ رُبَّانًا، وَأَبَاحَ لِي أَنْ أَجُولَ بِهَا مُدَّةَ شَهْرَيْنِ، رَيْثَمَا يُتَمِّمُ أَعْمَالَهُ فِي «تونكين». وَمَرَّتْ بِنَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَنَحْنُ نَجْتَازُ الْبِحَارَ، ثُمَّ هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ هَوْجَاءُ، دَفَعَتْنَا مُدَّةَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ إِلَى الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ، ثُمَّ إِلَى الشَّرْقِ. ثُمَّ أَخَذَتِ الْعَاصِفَةُ فِي السُّكُونِ وَأَعْقَبَتْهَا رِيحٌ صَرْصَرٌ هَبَّتْ عَلَيْنَا مِنَ الْغَرْبِ.

(٤) لُصُوصُ الْبَحْرِ

وَفِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ تَأَثَّرَتْنَا سَفِينَتَانِ مِنْ سُفُنِ لُصُوصِ الْبَحْرِ، وَتَمَكَّنَتَا مِنْ إِدْرَاكِنَا؛ لِأَنَّ سَفِينَتِي كَانَتْ ثَقِيلَةَ الْأَحْمَالِ، بَطِيئَةَ السَّيْرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِنَا الدِّفَاعُ عَنْ أَنْفُسِنَا.

وَوَصَلَ اللُّصُوصُ إِلَى سَفِينَتِنَا؛ فَأَلْفَوْنَا مُنْبَطِحِينَ عَلَى بُطُونِنَا، وَكُنْتُ قَدْ أَمَرْتُ رِجَالِي أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لِيَأْمَنُوا أَذَاهُمْ. وَاكْتَفَوْا بِأَنْ شَدُّوا وَثَاقَنَا، وَأَقَامُوا عَلَيْنَا مِنْ بَعْضِهِمْ حَرَسًا، ثُمَّ أَخَذُوا يَتَفَقَّدُونَ السَّفِينَةَ.



وَقَدْ وَقَعَ نَظَرِي — مِنْ بَيْنِهِمْ — عَلَى رَجُلٍ هُولَنْدِيٍّ كَانَ يَظْهَرُ بَيْنَهُمْ بِالزَّعَامَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُبَّانَهُمْ.

وَقَدْ أَدْرَكَ هَذَا الرَّجُلُ حَقِيقَةَ أَمْرِنَا، وَعَرَفَ بِلَادَنَا، ثُمَّ كَلَّمَنَا بِلُغَةِ قَوْمِهِ قَائِلًا: إِنَّهُ سَيَشُدُّ ظُهُورَ بَعْضِنَا إِلَى ظُهُورِ بَعْضٍ، وَيَقْذِفُ بِنَا إِلَى الْمَاءِ.

وَلَمَّا كُنْتُ أُجِيدُ اللُّغَةَ الْهُولَنْدِيَّةَ صَرَّحْتُ لَهُ بِأَمْرِنَا وَحَالَتِنَا، وَاسْتَحْلَفْتُهُ بِالدِّينِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَبِحَقِّ الْجِوَارِ وَالِائْتِلَافِ، أَنْ يَكُونَ وَسِيطَ خَيْرٍ لَدَى الرُّبَّانِ.

وَلَكِنَّ رَجَائِي هَذَا قَدْ زَادَ مِنْ ثَوْرَةِ نَفْسِهِ؛ فَغَلَا وَاشْتَطَّ فِي تَهْدِيدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَالْتَفَتَ إِلَى زُمَلَائِهِ، وَقَالَ لَهُمْ بِاللُّغَةِ الْيَابَانِيَّةِ كَلَامًا لَمْ أَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا يُذْكَرُ.

(٥) خَطَأُ جَلِفَر

وَكَانَتِ السَّفِينَةُ الْكَبِيرَةُ — لِلُصُوصِ الْبَحْرِ — تَحْتَ إِمْرَةِ رُبَّانٍ يَابَانِيٍّ يَتَحَدَّثُ قَلِيلًا بِاللُّغَةِ الْهُولَنْدِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَنِي هَذَا الرَّجُلُ، وَطَرَحَ عَلَيَّ عِدَّةَ أَسْئِلَةٍ أَجَبْتُهُ عَنْهَا بِخُضُوعٍ وَتَوَاضُعٍ،

ثُمَّ أَكَّدَ لِي أَنَّ حياتَنا باقِيَةٌ؛ فَشَكَرْتُ لَهُ شُكْرًا جَزِيلًا، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ أَطْيَبَ الثَّنَاءِ، وَالْتَفَتُّ إِلَى الْهُولَنْدِيِّ، وَقُلْتُ لَهُ: «إِنَّنِي وَجَدْتُ فِي عابِدِ الْأَصْنَامِ وَالنُّجُومِ ما لَمْ أَجِدْهُ فِيكَ، وَأَنْتَ الرَّجُلُ الْمُتَدَيِّنُ الْمُتَأَلِّهُ!»



عَلَى أَنَّنِي نَدِمْتُ عَلَى تَسَرُّعِي بِهَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ أَخَذَ يُلِحُّ عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَتَيْنِ بِوُجُوبِ إِلْقَائِي فِي الْمَاءِ؛ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى طَلَبِهِ، نَظَرًا لِلْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَكُلُّ ما أَجَازَهُ لَهُ هُوَ أَنْ يُعَامِلَنِي أَسْوَأَ مُعَامَلَةٍ؛ فَعَامَلَنِي بِمَا حَبَّبَ إِلَيَّ الْمَوْتَ.

ثُمَّ أَخَذُوا بَعْضَ رِجَالِ سَفِينَتِي الصَّغِيرَةِ، وَفَرَّقُوهُمْ عَلَى سَفِينَتَيْهِمْ، وَأَبْقَوْا طائِفَةً مِنْهُمْ فِي سَفِينَتِي.

(٦) فِي زَوْرَقٍ صَغِيرٍ

أَمَّا أَنَا، فَقَدْ أَخَذَنِي اللُّصُوصُ إِلَى زَوْرَقٍ صَغِيرٍ ذِي شِرَاعٍ، وَجَاءُونِي بِمَئونَةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَمَرَ الرُّبَّانُ الْيَابَانِيُّ بِزِيَادَةِ الْمَئونَةِ لِتَكْفِيَنِي ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، وَجَعَلَ هَذِهِ الزِّيَادَةَ مِنْ مَئونَتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِرِجَالِهِ أَنْ يُفَتِّشُونِي.

وَنَزَلْتُ إِلَى الزَّوْرَقِ؛ فَانْهَالَ عَلَيَّ الهولنديُّ بِأَفْحَشِ السِّبَابِ، وَمُقْذِعِ الْقَوْلِ، مِمَّا فَاضَ بِهِ لِسَانُهُ السَّلِيطُ، وَوَعَاهُ طَبْعُهُ الشِّرِّيرُ.

وَقَبْلَ سَاعَتَيْنِ مِنْ مُشَاهَدَتِي سَفِينَتَيِ الْقُرْصَانِ، كُنْتُ أَمْخُرُ الْمِيَاهَ بِزَوْرَقِي حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى الدَّرَجَةِ الْأَرْبَعِينَ عَرْضًا، وَالدَّرَجَةِ ١٢٣ طُولًا.

وَلَمَّا ابْتَعَدْتُ عَنْ هَذِهِ أَبْصَرْتُ بِمِجْهَرِي عِدَّةَ جَزَائِرَ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ؛ فَنَشَرْتُ الشِّرَاعَ، وَكَانَ الْجَوُّ حَسَنًا، وَكَانَتْ غَايَتِي إِدْرَاكَ أَقْرَبِ جَزِيرَةٍ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّنِي سَأَحُلُّ بِهَا بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، إِذَا بَذَلْتُ مِنَ الْجُهْدِ مَا يَكْفِي، ثُمَّ قَدَحْتُ زِنَادَ بُنْدُقِيَّتِي، وَأَشْعَلْتُ — مِنْ شَرَارِهِ — النَّارَ فِي أَعْشَابٍ يَابِسَةٍ جَمَعْتُهَا مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَأَنْضَجْتُ عَلَيْهَا بَيْضَاتٍ قَلِيلَةٍ أَتَغَذَّى بِهَا، ضَنًّا بِمَا بَقِيَ عِنْدِي مِنْ مَئُونَةٍ أَحْرِصُ عَلَيْهَا جَهْدَ اسْتِطَاعَتِي.

وَقَضَيْتُ لَيْلَتِي عِنْدَ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، إِذْ رَقَدْتُ عَلَى الْأَعْشَابِ، وَنِمْتُ مُسْتَرِيحًا مُسْتَسْلِمًا إِلَى سُبَاتٍ عَمِيقٍ.

(٧) فِي جَزِيرَةٍ نَائِيَةٍ

وَأَقْلَعْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى جَزِيرَةٍ ثَانِيَةٍ، وَمِنْهَا أَبْحَرْتُ إِلَى جَزِيرَةٍ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ إِلَى رَابِعَةٍ، مُسْتَعِينًا بِمَجَادِيفِ سَفِينَتِي الصَّغِيرَةِ.

وَلَا أُطِيلُ عَلَى الْقَارِئِ، وَحَسْبِي أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ انْتَهَيْتُ إِلَى جَزِيرَةٍ وَاقِعَةٍ فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ فِي نِهَايَةِ تِلْكَ الْجَزَائِرِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ أَبْعَدَ مَسَافَةً مِمَّا كُنْتُ أَحْسَبُ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ خَمْسِ سَاعَاتٍ. وَدُرْتُ حَوْلَهَا بِزَوْرَقِي آمِلًا أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى الْمَكَانِ الصَّالِحِ لِإِلْقَاءِ مَرَاسِيَّ فِيهِ.

وَهَبَطْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ مِنْ خَلِيجٍ صَغِيرٍ يَبْلُغُ اتِّسَاعُهُ ثَلَاثَةَ أَمْثَالِ زَوْرَقِي، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا لَيْسَتْ سِوَى صَخْرَةٍ نَبَتَتْ فِي أَجْزَاءٍ مِنْهَا حَشَائِشُ طَيِّبَةُ الرَّائِحَةِ.

(٨) يَأْسُ جَلِفَر

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلْتُ مَا قَلَّ مِنَ الطَّعَامِ أَخَذْتُ شَيْئًا مِنَ الْمُرَطِّبَاتِ، وَوَضَعْتُ الْبَاقِيَ فِي إِحْدَى مَغَاوِرِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ.

وَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى الْعُثُورِ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْبَيْضِ خِلَالَ الصُّخُورِ، وَاقْتَطَعْتُ قَدْرًا مِنَ الْأَعْشَابِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْحَشَائِشِ الْجَافَّةِ، لِأُشْعِلَهَا فِي الْغَدَاةِ بِشَرَارِ بُنْدُقِيَّتِي وَفَتِيلِ مِشْعَلِي الْقَوِيِّ، وَأُنْضِجَ عَلَيْهَا الْبَيْضَ.

وَبِتُّ طُولَ اللَّيْلَةِ فِي الْكَهْفِ الَّذِي وَضَعْتُ فِيهِ الزَّادَ، وَجَعَلْتُ مَوْطِنِي — فِي الرُّقَادِ — تِلْكَ الْحَشَائِشَ الْجَافَّةَ الَّتِي جِئْتُ بِهَا. وَلَمْ يُسْعِدْنِي النَّوْمُ إِلَّا قَلِيلًا؛ لِأَنَّنِي كُنْتُ مُمْتَلِئًا هَمًّا لِمَا أَنَا فِيهِ مِنْ تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ.

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْمَوْتَ مُحَقَّقٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْقَفْرِ الْمُنْعَزِلِ، وَتَسَلَّطَ عَلَيَّ هَذَا الْوَهْمُ — وَكَانَ الضَّعْفُ قَدْ نَالَ مِنِّي — وَعَانَيْتُ كَثِيرًا فِي اسْتِجْمَاعِ قُوَّتِي، حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الْكَهْفِ فِي وَضَحِ النَّهَارِ، وَكَانَ الْجَوُّ صَحْوًا، وَالشَّمْسُ تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا الْحَارَّةَ قَوِيَّةً، حَتَّى لَقَدْ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَتَّقِيَهَا بِحَنْيِ ظَهْرِي.

(٩) الْجَزِيرَةُ الطَّيَّارَةُ

وَلَكِنِ اقْتَمَّ الْجَوُّ فَجْأَةً، وَتَقَلَّبَ — كَعَادَتِهِ — بِاعْتِرَاضِ سَحَابَةٍ كَثِيفَةٍ فِي الْأُفُقِ؛ فَتَوَجَّهْتُ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ قَدْ أَوْلَيْتُهَا ظَهْرِي؛ فَإِذَا بِي أَرَى شَكْلًا مُسْتَدِيرًا كَالْعَيْنِ، مُتَحَرِّكًا أَمَامِي، مُتَنَقِّلًا هُنَا وَهُنَاكَ. وَكَانَ هَذَا الْجِسْمُ الْمُعَلَّقُ فِي الْفَضَاءِ عَلَى ارْتِفَاعِ مِيلَيْنِ تَقْرِيبًا — كَمَا بَدَا لِي — قَدْ حَجَبَ عَنْ بَاصِرَتِي ضَوْءَ الشَّمْسِ زُهَاءَ سِتِّ دَقَائِقَ أَوْ سَبْعٍ. وَلَمَّا دَنَا هَذَا الْجِسْمُ مِنْ الْمَكَانِ الَّذِي أَنَا فِيهِ أَلْفَيْتُهُ صُلْبًا مَتِينًا، مُنْبَسِطَ الْقَاعِدَةِ، مُتَجَمِّعَ الْأَوْصَالِ، يُرْسِلُ عَلَى الْبَحْرِ ضَوْءًا.



وَوَقَفْتُ فِي مَكَانٍ يَرْتَفِعُ مِائَتَيْ خُطْوَةٍ عَنْ سَطْحِ الشَّاطِئِ؛ فَرَأَيْتُ هَذَا الْجِسْمَ يَهْبِطُ حَتَّى صَارَ مِنِّي عَلَى قِيدِ أَلْفِ خُطْوَةٍ، وَهُنَا تَنَاوَلْتُ مِجْهَرِي؛ فَكَشَفَ لِي عَنْ وُجُودِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ مُتَحَرِّكِينَ، يَشْخَصُونَ إِلَيَّ بِأَبْصَارِهِمْ، وَيَتَطَلَّعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

فَبَعَثَ عِنْدِي حُبُّ الْحَيَاةِ وَالِاحْتِفَاظِ بِالْبَقَاءِ بَعْضَ الشُّعُورِ بِالسُّرُورِ، وَقَوِيَ أَمَلِي فِي أَنَّ هَذَا الْمَظْهَرَ قَدْ يُنْقِذُنِي مِنَ الْحَالَةِ الْمُحْزِنَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ لِلْقَارِئِ أَنَّ مَا شَهِدْتُهُ إِنَّمَا كَانَ جَزِيرَةً سَابِحَةً فِي الْفَضَاءِ، وَفِي مَقْدُورِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ بِهَا أَنْ يَرْفَعُوهَا أَوْ يَهْبِطُوا بِهَا، وَأَنْ يُسَيِّرُوهَا كَيْفَ يَشَاءُونَ.

(١٠) فِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ

وَلَمَّا كُنْتُ لَا أُدْرِكُ هَذِهِ الْحَالَ الْعَجِيبَةَ، وَلَيْسَ فِي وُسْعِي أَنْ أَتَعَرَّفَ كُنْهَهَا، اكْتَفَيْتُ بِأَنْ أُوَجِّهَ نَظَرِي إِلَى اتِّجَاهِ الْجَزِيرَةِ فِي حَرَكَتِهَا.

وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُبْصِرَ فِيهَا شُرُفَاتٍ عَدِيدَةً وَسَلَالِمَ بَيْنَ مَسَافَةٍ وَأُخْرَى مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. وَشَهِدْتُ فِي أَعْلَى شُرُفَاتِهَا رِجَالًا يَصِيدُونَ الطُّيُورَ بِشُصُوصِهِمْ، وَرِجَالًا آخَرِينَ يَشْهَدُونَ هَذَا الصَّيْدَ.

فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ بِقُبَّعَتِي وَمِنْدِيلِي. وَعِنْدَمَا دَنَوْا مِنِّي صِحْتُ بِكُلِّ قُوَايَ، وَسَدَّدْتُ النَّظَرَ؛ فَإِذَا أَنَا حِيَالَ جُمْهُورٍ مُتَجَمِّعٍ عَلَى الضِّفَّةِ الْمُوَاجِهَةِ لِي، وَلَاحَظْتُ مِنْ حَالَتِهِمْ أَنَّهُم رَأَوْنِي وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنِدَائِي.

ثُمَّ بَصُرْتُ بِخَمْسَةِ أَشْخَاصٍ أَوْ سِتَّةٍ بَادَرُوا بِالصُّعُودِ إِلَى قِمَّةِ الْجَزِيرَةِ. وَخَطَرَ لِي أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى بَعْضِ ذَوِي الشَّأْنِ، لِتَلَقِّي الْأَوَامِرِ اللَّازِمَةِ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ.

ثُمَّ زَادَ — أَمَامَ نَظَرِي — عَدَدُ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. وَفِي قُرَابَةِ نِصْفِ سَاعَةٍ جَعَلَتْ تَدْنُو حَتَّى كَانَتْ عَلَى قِيدِ مِائَةِ مِتْرٍ مِنِّي.

وَحِينَئِذٍ أَبْدَيْتُ تَوَسُّلِي وَرَجَائِي بِلَهْجَةٍ حَارَّةٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِي مِنْهُمْ رَدٌّ عَلَى نِدَائِي.

وَكَانَ أَقْرَبَ مَنْ ظَهَرَ أَمَامَ نَظَرِي بَعْضُ ذَوِي الْوَجَاهَةِ. وَأَخِيرًا سَمِعْتُ صَوْتَ أَحَدِهِمْ يَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ وَاضِحَةٍ، غَايَةٍ فِي الرِّقَّةِ وَالْأَدَبِ، وَكَانَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ تَقْرُبُ مِنَ الْإِيطَالِيَّةِ؛ فَتَحَدَّثْتُ بِالْإِيطَالِيَّةِ ظَنًّا مِنِّي أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ تَحْلُو فِي آذَانِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ لُغَةٍ عَدَاهَا.

عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ أَدْرَكُوا مَا أَرْمِي إِلَيْهِ؛ فَأَشَارُوا عَلَيَّ بِأَنْ أَنْحَدِرَ عَنِ الصَّخْرَةِ الَّتِي أَنَا قَائِمٌ عَلَيْهَا، وَأَنْ أَمْضِيَ صَوْبَ الشَّاطِئِ.

فَصَدَعْتُ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ، وَأَلْفَيْتُ الْجَزِيرَةَ الطَّائِرَةَ تَهْبِطُ إِلَى دَرَجَةٍ مُنَاسِبَةٍ، وَأَلْقَوْا إِلَيَّ — مِنْ أَدْنَى شُرْفَةٍ — سِلْسِلَةً بِهَا مَقْعَدٌ جَلَسْتُ عَلَيْهِ.

وَفِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ رَفَعَتْنِي تِلْكَ السِّلْسِلَةُ — الْمُثَبَّتَةُ فِي بَكَرَاتٍ عَدِيدَةٍ — إِلَى الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ.

الْفَصْلُ الثَّانِي

(١) أَهْلُ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ وَعَادَاتُهُمْ

وَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الْجَزِيرَةِ أَحَاطَ بِي جُمْهُورٌ مِنْ أَهْلِهَا، وَظَلُّوا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ نَظَرَاتٍ مِلْؤُهَا الدَّهْشَةُ وَالْعَجَبُ. وَلَمْ تَكُنْ دَهْشَتِي مِنْهُمْ بِأَقَلَّ مِنْ دَهْشَتِهِمْ مِنِّي؛ فَإِنَّ عَيْنَيَّ لَمْ تَقَعَا — طُولَ عُمْرِي — عَلَى أَمْثَالِهِمْ مِنَ النَّاسِ. وَكَانَتْ أَزْيَاؤُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ وَحَرَكَاتُهُمْ غَايَةً فِي الْغَرَابَةِ؛ فَقَدْ رَأَيْتُهُمْ يُحَرِّكُونَ رُءُوسَهُمْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — وَيُمِيلُونَهَا إِلَى الْأَرْضِ، وَيَحْنُونَ قَامَاتِهِمْ. وَقَدْ أَدْهَشَنِي أَنَّنِي كُنْتُ أَرَى كُلَّ وَاحِدٍ — مِنْ سُكَّانِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ — يَنْظُرُ بِإِحْدَى عَيْنَيْهِ إِلَى مَا أَمَامَهُ، وَيُرْسِلُ عَيْنَهُ الْأُخْرَى إِلَى السَّمَاءِ.



وَكَانَتْ ثِيَابُهُمْ مُزْدَانَةً بِتَصَاوِيرَ مُعْجِبَةٍ، تُمَثِّلُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَالنَّايَ وَالْعُودَ وَالْكَمَانَ وَالطُّبُولَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ آلَاتِ الْمُوسِيقَا الْمَأْلُوفَةِ وَغَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ؛ فَقَدْ وَقَعَ بَصَرِي — فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ — عَلَى أَلْوَانٍ شَتَّى مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي لَا عَهْدَ لَنَا بِرُؤْيَتِهَا فِي بِلَادِنَا.



وَرَأَيْتُ حَوْلَهُمْ جَمْهَرَةً مِنَ الْخَدَمِ يَحْمِلُونَ أَكْيَاسًا مُعَلَّقَةً فِي أَطْرَافِ عِصِيٍّ صَغِيرَةٍ، وَفِي تِلْكَ الأَكْيَاسِ كَثِيرٌ مِنَ الْحَصَى وَالْمَسَامِيرِ.

وِلَشَدَّ مَا تَمَلَّكَتْنِي الدَّهْشَةُ حِينَ رَأَيْتُهُمْ يَضْرِبُونَ بِهَا أَفْوَاهَ مَنْ يَقْتَرِبُونَ مِنْهُمْ أَوْ آذَانَهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَ لِذَلِكَ سَبَبًا.

عَلَى أَنَّنِي قَدْ أَدْرَكْتُ السِّرَّ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ الشَّعْبَ غَارِقٌ فِي التَّفْكِيرِ لَا يَكَادُ يُفِيقُ، وَهُوَ دَائِمُ الصَّمْتِ لَا يَكَادُ يُصْغِي لِمَا حَوْلَهُ، وَلَا يَكَادُ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَلِهَذَا يَلْجَأُ الْخَدَمُ إِلَى إِيقَاظِهِ بِتِلْكَ الأَكْيَاسِ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُفْضُوا إِلَيْهِ بِخَبَرٍ، أَوْ يُحَدِّثُوهُ بِأَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ. وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِيقَاظِهِ — مِنْ تَفْكِيرِهِ الْعَمِيقِ — بِغَيْرِ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ.

وَمِنْ عَادَةِ كُلِّ خَادِمٍ أَنْ يَصْحَبَ سَيِّدَهُ كُلَّمَا خَرَجَ، وَيَضْرِبَهُ بِذَلِكَ الْكِيسِ عَلَى فَمِهِ كُلَّمَا رَآهُ يَتَعَرَّضُ لِخَطَرٍ مِنَ الأَخْطَارِ؛ لِيُوقِظَهُ مِنْ سُبَاتِهِ وَأَحْلَامِهِ، وَيُنَبِّهَهُ إِلَى الْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بِهِ، وَيَقِيهِ شَرَّ السُّقُوطِ فِي هُوَّةٍ أَوْ غَدِيرٍ، أَوْ الاصْطِدَامِ بِصَخْرَةٍ أَوْ إِنْسَانٍ يَعْتَرِضَانِهِ فِي الطَّرِيقِ.

(٢) فِي قَصْرِ الْمَلِكِ

ثُم سَارُوا بِي حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى قِمَّةِ الْجَزِيرَةِ، وَأَدْخَلُونِي قَصْرَ الْمَلِكِ؛ فَرَأَيْتُهُ مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشِهِ، تَكْتَنِفُهُ صَفْوَةُ الْأَعْيَانِ وَالسَّرَاةِ، وَأَمَامَهُ خِوَانٌ كَبِيرٌ قَدْ نُسِّقَتْ عَلَيْهِ كُرَاتٌ مُخْتَلِفَةُ الْأَحْجَامِ، وَدَوَائِرُ وَآلَاتٌ هَنْدَسِيَّةٌ مُتَبَايِنَةُ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ.

فَلَمْ يَنْتَبِهِ الْمَلِكُ إِلَيَّ وَقْتَ دُخُولِي، وَإِنْ كَانَ رِفَاقِي قَدْ أَحْدَثُوا عِنْدَ مَقْدَمِي ضَجَّةً عَظِيمَةً؛ فَقَدْ كَانَ الْمَلِكُ — حِينَئِذٍ — غَارِقًا فِي حَلِّ مَسْأَلَةٍ رِيَاضِيَّةٍ، وَمَثَلْتُ أَمَامَهُ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ تَفْكِيرِهِ. وَكَانَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ خَادِمَان بِيَدِ كُلٍّ مِنْهُمَا كِيسٌ صَغِيرٌ؛ فَلَمْ يَنْتَهِ مِنْ أَحْلَامِهِ، حَتَّى تَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمَا، وَضَرَبَهُ — بِذَلِكَ الْكِيسِ — عَلَى فَمِهِ، فِي أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ. ثُمَّ تَقَدَّمَ الثَّانِي وَضَرَبَهُ بِالْكِيسِ عَلَى أُذُنِهِ الْيُسْرَى — فِي إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ — فَاسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ فَزِعًا مَذْعُورًا، وَأَجَالَ بَصَرَهُ فِيَّ، وَفِي مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْحَاضِرِينَ، وَذَكَرَ مَا أَخْبَرُوهُ عَنِّي قَبْلَ مُثُولِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَيَّ بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَفْهَمْهَا. وَتَقَدَّمَ إِلَيَّ أَحَدُ الْفِتْيَانِ، وَفِي يَدِهِ كِيسٌ، فَضَرَبَنِي بِهِ عَلَى أُذُنِي الْيُمْنَى؛ فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّنِي مُنْتَبِهٌ، وَاعٍ لِكُلِّ مَا يُفْضُونَ بِهِ إِلَيَّ، فَعَجِبَ الْمَلِكُ وَالْحَاضِرُونَ مِنْ ذَكَائِي وَانْتِبَاهِي النَّادِرَيْنِ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَلِكُ أَسْئِلَةً عِدَّةً، فَأَجَبْتُهُ عَنْهَا — جَهْدَ طَاقَتِي — بِإِشَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

(٣) آلَاتُ الْمُوسِيقَا

وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَدْخَلُونِي حُجْرَةً أُخْرَى، وَقَدَّمُوا لِي طَعَامًا، وَتَفَضَّلَ أَرْبَعَةٌ مِنْ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ، فَجَلَسُوا إِلَى جَانِبِي عَلَى الْمَائِدَةِ. وَقَدِ اشْتَدَّ عَجَبِي مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ، فَقَدْ كَانَتْ كُلُّهَا مَصْنُوعَةً عَلَى أَشْكَالٍ هَنْدَسِيَّةٍ عَجِيبَةٍ؛ فَكَتِفُ الْخَرُوفِ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ، وَالْبَطُّ عَلَى شَكْلِ كَمَانٍ، وَالْخُبْزُ أُسْطُوَانِيٌّ.

وَلَيْسَ فِي الطَّعَامِ لَوْنٌ مِنَ الْأَلْوَانِ مَصْنُوعٌ صُنْعًا عَادِيًّا؛ فَقَدْ تَخَيَّرُوا لِكُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهُ مَا يُلَائِمُهَا مِنْ آلَاتِ الْمُوسِيقَا.

(٤) لُغَةُ الْبِلَادِ

وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْنَا مِنَ الطَّعَامِ جَاءَ إِلَيَّ أُسْتَاذٌ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ، وَمَعَهُ قَلَمٌ وَمِحْبَرَةٌ وَوَرَقٌ، وَأَفْهَمَنِي — بِمَا أَبْدَاهُ إِلَيَّ مِنْ حَرَكَاتٍ وَإِشَارَاتٍ — أَنَّ جَلَالَتَهُ قَدْ أَمَرَهُ أَنْ يُعَلِّمَنِي لُغَةَ الْبِلَادِ.

وَلَبِثْتُ مَعَ ذَلِكَ الْأُسْتَاذِ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ، تَعَلَّمْتُ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي كَانَ يُفَسِّرُهَا لِي بِإِشَارَاتٍ تَقِفُنِي عَلَى مَدْلُولَاتِهَا وَمَعَانِيهَا.

وَقَدْ أَطْلَعَنِي ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ عَلَى صُوَرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَالدَّوَائِرِ الْقُطْبِيَّةِ وَشَتَّى الْآلَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ، وَذَكَرَ لِي أَسْمَاءَهَا جَمِيعًا.

وَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ ذَلِكَ الدَّرْسِ كَتَبْتُ كُلَّ مَا تَعَلَّمْتُهُ فِي مُعْجَمٍ صَغِيرٍ، حَتَّى لَا أَنْسَاهُ.

وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيَّ وَقْتٌ قَصِيرٌ حَتَّى سَهُلَ عَلَيَّ أَنْ أُحَادِثَهُمْ بِتِلْكَ اللُّغَةِ؛ فَقَدْ بَذَلْتُ جُهْدِي، وَسَخَّرْتُ كُلَّ مَوَاهِبِي وَذَكَائِي فِي تَذْلِيلِ عَقَبَاتِ تِلْكَ اللُّغَةِ، حَتَّى عَرَفْتُهَا، وَفَهِمْتُ أَنَّ كَلِمَةَ «لابوتا» — الَّتِي يُطْلِقُونَهَا عَلَى جَزِيرَتِهِمْ — مَعْنَاهَا: الْجَزِيرَةُ الطَّيَّارَةُ.

(٥) خَيَّاطُ «لابوتا»

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّانِي قَدِمَ إِلَيَّ أَحَدُ الْخَيَّاطِينَ لِيَصْنَعَ لِي ثَوْبًا أَلْبَسُهُ. وَلِلْخَيَّاطِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ طَرِيقَةٌ عَجِيبَةٌ لَمْ نَأْلَفْهَا فِي بِلَادِنَا؛ فَقَدْ بَدَأَ الْخَيَّاطُ عَمَلَهُ بِقِيَاسِ طُولِ جِسْمِي وَعَرْضِهِ، وَظَلَّ يُجْرِي حِسَابَهُ فِي طُرُقٍ هَنْدَسِيَّةٍ مُلْتَوِيَةٍ، وَيَسْتَعْمِلُ الْمِسْطَرَةَ وَالْفِرجَارَ زَمَنًا طَوِيلًا. ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْصَرَفَ. وَعَادَ إِلَيَّ بَعْدَ أُسْبُوعٍ، وَمَعَهُ ثَوْبٌ مُشَوَّشُ التَّفْصِيلِ. وَقَدِ اعْتَذَرَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ فِي حِسَابِهِ.

(٦) شَكَاوَى الشَّعْبِ

وَفِي هَذَا الْيَوْمِ أَمَرَ جَلَالَةُ الْمَلِكِ أَنْ تَتَقَدَّمَ جَزِيرَتُهُ إِلَى مَدِينَةِ «لاجادو»، وَهِيَ الْعَاصِمَةُ الثَّانِيَةُ لِمَمْلَكَتِهِ، وَاعْتَزَمَ أَنْ يَجُوبَ الْمُدُنَ وَالْقُرَى؛ لِيَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ شَعْبِهِ وَشَكَاوَاهُ.



فَأَلْقَى رِجَالُهُ خُيُوطًا عِدَّةً، يَنْتَهِي كُلُّ خَيْطٍ مِنْهَا بِقِطْعَةٍ مِنَ الرَّصَاصِ؛ لِيَرْبِطَ فِيهَا الْمَظْلُومُونَ وَالشَّاكُونَ ظُلَامَاتِهِمْ، فَإِذَا انْتَهَوْا مِنْ ذَلِكَ رُفِعَتِ الْخُيُوطُ، وَعُرِضَتْ عَلَى الْمَلِكِ لِيَنْظُرَ فِيهَا.

(٧) اللُّغَةُ وَالْمُوسِيقَا

وَكُنْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — عَارِفًا بِالرِّيَاضَةِ، وَسَاعَدَنِي ذَلِكَ عَلَى فَهْمِ لُغَتِهِمْ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي الْكَلَامِ، فَقَدْ بُنِيَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ عَلَى الرِّيَاضَةِ وَالْمُوسِيقَا؛ فَهُمْ لَا يُعَبِّرُونَ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَآرَائِهِمْ بِغَيْرِ الْخُطُوطِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَالصُّوَرِ الْمُوسِيقِيَّةِ، فَإِذَا مَدَحُوا إِنْسَانًا جَمِيلَ الطَّلْعَةِ قَالُوا: إِنَّ حَاجِبَيْهِ قَوْسَانِ بَدِيعَتَانِ، أَوْ قِطْعَتَانِ مِنْ دَائِرَةٍ جَمِيلَةٍ!

وَهُمْ يُشَبِّهُونَ الْعُيُونَ بِالدَّوَائِرِ، وَالْحَوَاجِبَ بِالْقِسِيِّ، إِلَى آخِرِ تِلْكَ التَّشْبِيهَاتِ الَّتِي أَلِفُوهَا.

(٨) حَمَاقَةُ الْأَهْلِينَ

أَمَّا بُيُوتُهُمْ فَقَدْ بُنِيَتْ عَلَى أَقْبَحِ طِرَازٍ. وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ الْبِلَادِ — عَلَى وُلُوعِهِمْ وَشَغَفِهِمْ بِالْهَنْدَسَةِ النَّظَرِيَّةِ — لَا يُقِيمُونَ وَزْنًا لِلْهَنْدَسَةِ الْعَمَلِيَّةِ، بَلْ هُمْ يَحْتَقِرُونَهَا احْتِقَارًا شَدِيدًا.

وَالْحَقَّ أَقُولُ، إِنَّنِي لَمْ أَرَ فِي حَيَاتِي حَمَاقَةً كَحَمَاقَةِ هَذَا الشَّعْبِ السَّاذَجِ الَّذِي شَغَلَتْهُ التَّوَافِهُ وَالتُّرَّهَاتُ عَنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ؛ فَغَرِقُوا فِي أَوْهَامِهِمْ، وَاسْتَسْلَمُوا لِمَخَاوِفِهِمْ، وَأَصْبَحُوا لَا يُعْنَوْنَ إِلَّا بَالتَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ فِي خُرَافَاتٍ لَا تُجْدِي.

وَمِنْ أَوْهَامِهِمْ: أَنَّ الْأَرْضَ إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنَ الشَّمْسِ احْتَرَقَتْ وَاحْتَرَقَ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا، فَهُمْ لَا شُغْلَ يَشْغَلُهُمْ إِلَّا الْخَوْفُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ الْمَرْهُوبِ؛ فَإِذَا أَصْبَحُوا ظَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ يَسْأَلُ صَاحِبَهُ عَمَّا حَدَثَ لِلشَّمْسِ، وَكَيْفَ غَرَبَتْ وَكَيْفَ أَشْرَقَتْ.

وَهَكَذَا يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي عَبَثٍ وَأَوْهَامٍ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

(١) بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ



وَاشْتَاقَتْ نَفْسِي أَنْ أَرَى غَرَائِبَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي سَمِعْتُ عَنْهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَمَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْ مَلِيكِهَا، وَالْتَمَسْتُ مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي رُؤْيَتِهَا، فَأَقَرَّ الْتِمَاسِي، وَعَهِدَ إِلَى بَعْضِ حَاشِيَتِهِ أَنْ يَصْحَبَنِي وَيُرْشِدَنِي إِلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ كَانَ أَكْبَرَ مَا يَعْنِينِي أَنْ أَتَعَرَّفَ حَقِيقَةَ الْجَزِيرَةِ، وَأَقِفَ عَلَى أَسْرَارِهَا الطَّبِيعِيَّةِ وَالصِّنَاعِيَّةِ الَّتِي أَكسَبَتْهَا تِلْكَ الْمَزَايَا الْعَجِيبَةِ؛ فَجَعَلَتْهَا تَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ وَفْقَ أَغْرَاضِ أَهْلِهَا، وَتَسِيرُ إِلَى حَيْثُ يُوَجِّهُونَهَا، وَتَقِفُ كُلَّمَا أَرَادُوا.

(٢) وَصْفُ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ

أَمَّا هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الطَّيَّارَةُ فَهِيَ مُسْتَدِيرَةُ الشَّكْلِ — كَمَا رَأَيْتُهَا — وَتَبْلُغُ مِسَاحَتُهَا نَحْوَ عَشْرَةِ آلَافِ فَدَّانٍ تَقْرِيبًا.

وَهِيَ تَلُوحُ — لِمَنْ يَرَاهَا — مُرْتَفِعَةً فِي الْجَوِّ، كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ مَصْقُولَةٌ مِنَ الْمَاسِ، يَبْدُو لَمَعَانُهَا عَلَى مَسَافَةِ أَرْبَعِمِائَةِ خُطْوَةٍ.

وَيَرَى النَّاظِرُ — فِي أَعْلَى الْجَزِيرَةِ — كَثِيرًا مِنَ الْمَعَادِنِ، كَمَا يَرَى أَرْضًا خِصْبَةً يَتَرَجَّحُ سُمْكُهَا بَيْنَ عَشْرِ خُطُوَاتٍ وَاثْنَتَيْ عَشْرَةَ خُطْوَةً.

وَتَجْتَمِعُ الْأَمْطَارُ الَّتِي تَسْقُطُ عَلَى أَرْضِ الْجَزِيرَةِ فِي وَسَطِهَا، حَيْثُ تَتَفَرَّعُ مِنْهَا الْغُدْرَانُ الصَّغِيرَةُ، وَتَنْبُعُ مِنْ أَرْبَعَةِ يَنَابِيعَ هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَحْوَاضِ الْكَبِيرَةِ. وَالشَّمْسُ وَحْدَهَا كَفِيلَةٌ بِتَبْخِيرِ الْمَاءِ — نَهَارًا — حَتَّى لَا يَفِيضَ عَنْ حَاجَةِ الْجَزِيرَةِ.

وَفِي مَقْدُورِ الْمَلِكِ أَنْ يَرْفَعَ الْجَزِيرَةَ — إِذَا شَاءَ — حَتَّى تَعْلُوَ مِنْطَقَةَ السُّحُبِ، وَبِذَلِكَ يَتَّقِي هُطُولَ الْأَمْطَارِ وَتَسَاقُطَ النَّدَى عَلَى جَزِيرَتِهِ. وَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي وَسَطِ الْجَزِيرَةِ كَهْفًا وَاسِعًا يَمْتَدُّ فِي أَعْمَاقِهَا إِلَى مَسَافَةٍ كَبِيرَةٍ، يُضِيئُهُ خَمْسُونَ مِصْبَاحًا، يَتَأَلَّقُ سَنَاهَا، وَلَا يَخْبُو نُورُهَا أَبَدًا؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْمَاسِ. وَالضَّوْءُ يَنْبَعِثُ مِنْهَا إِلَى جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْكَهْفِ.

وَقَدْ أَطْلَقُوا عَلَى هَذَا الْغَارِ اسْمَ «الْمِرْصَدِ»؛ لِأَنَّهُ حَوَى مِنْ مُعَدَّاتِ الْفَلَكِيِّينَ وَأَدَوَاتِهِمْ شَيْئًا كَثِيرًا.

(٣) حَجَرُ الْمَغْنَطِيسِ

وَلَعَلَّ أَغْرَبَ مَا رَأَيْتُهُ فِي تِلْكِ الْجَزِيرَةِ هُوَ حَجَرٌ مِنَ الْمَغْنَطِيسِ، كَبِيرُ الْحَجْمِ، هَنْدَسِيُّ الشَّكْلِ، يُخَيَّلُ لِلرَّائِي أَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الثِّيَابِ الْمَنْسُوجَةِ. وَقَدْ عُلِّقَ هَذَا الْحَجَرُ الضَّخْمُ فِي سِلْسِلَةٍ مَتِينَةٍ مِنَ الْمَاسِ، تَخْتَرِمُهُ مِنْ وَسَطِهِ؛ فَيَظَلُّ الْحَجَرُ يَهْتَزُّ — لِذَلِكَ — اهْتِزَازَاتٍ مُتَّسِقَةً مُتَتَابِعَةً.

وَقَدْ عَجِبْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِنْ دِقَّةِ وَاضِعِيهِ وَبَرَاعَتِهِمْ فِي الْهَنْدَسَةِ إِلَى هَذَا الْمَدَى الْبَعِيدِ، حَتَّى لَيَظُنّ رَائِيهِ أَنَّ يَدًا ضَعِيفَةً تَهُزُّهُ وَتُحَرِّكُهُ كَمَا تَشَاءُ.

وَتَرَى حَوْلَ هَذَا الْحَجَر دَائِرَةً مِنَ الْمَاسِ هِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِأُسْطَوَانَةٍ مُجَوَّفَةٍ، مَوْضُوعَةٍ وَضْعًا أُفُقِيًّا، وَقَائِمَةً عَلَى ثَمَانِي قَوَاعِدَ مُرْتَفِعَةٍ مِنَ الْمَاسِ.

وَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَيَّةُ قُوَّةٍ أَنْ تُحَرِّكَ هَذَا الْحَجَرَ؛ لِأَنَّ الدَّائِرَةَ وَقَوَائِمَهَا تُعَدُّ قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنَ الْمَاسِ، هِيَ قَاعِدَةُ تِلْكَ الْجَزِيرَة.

وَهَذَا الْحَجَرُ الْمَغْنَطِيسِيُّ هُوَ الَّذِي يُحَرِّكُ الْجَزِيرَةَ، وَيَرْفَعُهَا وَيُهْبِطُهَا، وَيُسَيِّرُهَا وَيَقِفُهَا.

وَيُعَدُّ مَلِكُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَقْوَى مَلِكٍ فِي الْعَالَمِ، وَقَلَّمَا يَجْرُؤُ شَعْبٌ مِنْ شُعُوبِهِ عَلَى مُخَالَفَتِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَدِينَةٍ تَسْتَعْصِي عَلَيْهِ، أَوْ تَتَرَدَّدُ فِي طَاعَةِ أَمْرِهِ، أَوْ تَتَوَانَى عَنْ دَفْعِ الضَّرَائِبِ، تُعَرِّضُ نَفْسَهَا لِوَيْلَاتٍ وَمَصَائِبَ لَا قِبَلَ لَهَا بِاحْتِمَالِهَا.

(٤) انْتِقَامُ الْمَلِكِ

ولِلْمَلِكِ فِي تَأْدِيبِ الْعُصَاةِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ طَرِيقَانِ:

أُولاهُمَا: أَنْ يُوَجِّهَ جَزِيرَتَهُ الطَّيَّارَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ الثَّائِرَةِ أَوِ الْعَاصِيَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَهَا أَمَرَ أَعْوَانَهُ بِوَقْفِ جَزِيرَتِهِ فِي الْجَوِّ زَمَنًا طَوِيلًا؛ لِتَحْجُبَ الشَّمْسَ وَالْمَطَرَ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَتَنْمُوَ جَرَاثِيمُ الْأَمْرَاضِ الْفَتَّاكَةِ، وَيَنْتَشِرُ الْمَرَضُ، وَتَكْثُرُ الْوَفَيَاتُ.

وَالطَّرِيقُ الثَّانِيَةُ: يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْمَلِكُ إِذَا تَمَادَى الشَّعْبُ فِي التَّمَرُّدِ وَلَجَّ فِي الْعِصْيَانِ، فَثَمَّةَ يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَعْوَانَهُ أَنْ يَقْذِفُوهُمْ بِحِجَارَةٍ ضَخْمَةٍ تَهْوِي عَلَى رُءُوسِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مِنْ جَزِيرَتِهِ، فَتُهْلِكُ النَّاسَ وَتُدَمِّرُ الْبُيُوتَ.

وَفِي قُدْرَةِ الْمَلِكِ أَنْ يَأْمُرَ أَعْوَانَهُ — إِذَا عَزَمَ عَلَى إِبَادَةِ مَدِينَةٍ كَامِلَةٍ — أَنْ يُهْبِطُوا الْجَزِيرَةَ عَلَيْهَا فَتُدَمِّرَ مَنْ فِيهَا، وَتَسْحَقَ مَا تَحْوِيهِ مِنْ مَاشِيَةٍ وَبَيْتٍ، فَلَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْمُدُنِ تَكْتَنِفُهَا الصُّخُورُ الشَّاهِقَةُ، فَتَحْمِيهَا ذَلِكَ الْخَطَرَ الدَّاهِمَ، وَلَا تَسْتَطِيعُ الْجَزِيرَةُ الطَّيَّارَةُ أَنْ تَهْبِطَ عَلَيْهَا؛ حَتَّى لَا تَصْطَدِمَ وَتِلْكَ الصُّخُورَ الْمُرْتَفِعَةَ فَتَتَحَطَّمَ تَحْطِيمًا.

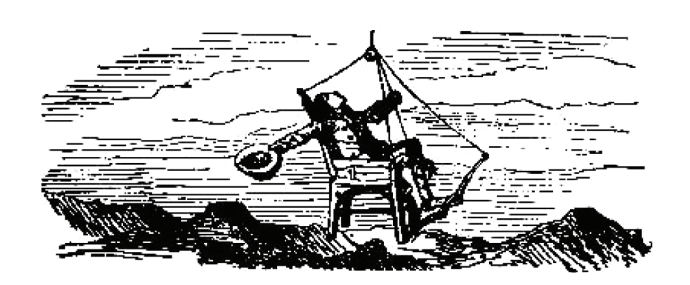
وَلِهَذَا السَّبَبِ — وَحْدَهُ — يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَعْوَانَهُ — إِذَا أَصَرَّ عَلَى تَدْمِيرِ مَدِينَةٍ — أَنْ يُهْبِطُوا الْجَزِيرَةَ عَلَيْهَا فِي رِفْقٍ وَحَذَرٍ، وَيُوهِمُ النَّاسَ أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالشَّفَقَةَ تَدْفَعَانِهِ إِلَى

التَّرَيُّثِ وَالْأَنَاةِ فِي انْتِقَامِهِ، وإِنْ كَانَتِ الْحَقِيقَةُ الذَّائِعَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ هِيَ أَنَّهُ لَا يَخْشَى إِلَّا عَلَى جَزِيرَتِهِ وَحْدَهَا مِنَ الدَّمَارِ وَالتَّلَفِ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

(١) مِنَ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ إِلَى «بالْنِيارْب»

لَمْ تَكُنْ دَهْشَتِي مِنْ ذَلِكَ الشَّعْبِ الْعَجِيبِ أَقَلَّ مِنْ دَهْشَةِ ذَلِكَ الشَّعْبِ مِنِّي؛ فَقَدْ كُنْتُ وَإِيَّاهُ جِدَّ مُخْتَلِفَيْنِ فِي النَّزْعَةِ وَالْفَهْمِ.



كَانَ الشَّعْبُ عَلَى حَظٍّ كَبِيرٍ مِنَ الْبَرَاعَةِ فِي الْحِسَابِ وَالْمُوسِيقَى، وَلَمْ تَكُنْ مَوَاهِبِي تُؤَهِّلُنِي لِمُجَارَاتِهِ فِيهِمَا، وَكَانُوا لِذَلِكَ لَا يَتَمَالَكُونَ أَنْ يَحْتَقِرُونِي.

وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الْجَزِيرَةِ؛ فَذَهَبْتُ إِلَى شَيْخٍ مُسِنٍّ كُنْتُ آنَسُ بِالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِ، وَكَانَ يَعْطِفُ عَلَيَّ، فَرَجَوْتُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لِيَ الْمَلِكَ فِي السَّفَرِ، فَوَعَدَنِي بِتَحْقِيقِ رَجَائِي، وَأَظْهَرَ أَلَمَهُ لِفِرَاقِي. وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ حَصَلَ عَلَى إِذْنٍ مِن الْمَلِكِ بِذَلِكَ.

وَقَدْ مَنَحَنِي جَلَالَتُهُ كَثِيرًا مِنَ الْهَدَايَا، كَمَا قَدَّمَ لِي الشَّيْخُ مَاسَةً ثَمِينَةً، وَأَحْضَرَ لِي كِتَابَ تَوْصِيَةٍ مِنَ الْمَلِكِ إِلَى أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ فِي «لاجادو» عَاصِمَةِ «بالنيارب».

وَقَدْ أَنْزَلُونِي مِنَ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَصْعَدُونِي بِهَا إِلَيْهَا، فَوَاصَلْتُ السَّيْرَ حَتَّى بَلَغْتُ مَدِينَةَ «لاجادو»، وَحَمِدْتُ اللهَ عَلَى خَلَاصِي مِنْ صُحْبَةِ أُولَئِكَ الْحَمْقَى، وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي حِينَ غَادَرْتُ الْجَزِيرَةَ الطَّيَّارَةَ، وَأَصْبَحْتُ أَسِيرُ عَلَى الْأَرْضِ الثَّابِتَةِ.

(٢) فِي مَدِينَةِ «لاجادو»

وَاهْتَدَيْتُ — بَعْدَ قَلِيلٍ — إِلَى بَيْتِ السَّرِيِّ، وَأَرَيْتُهُ كِتَابَ التَّوْصِيَةِ الَّذِي أَعْطَانِيهِ مَلِكُ الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ؛ فَرَحَّبَ بِي، وَأَكْرَمَ وِفَادَتِي.

وَقَضَيْتُ عِنْدَهُ زَمَنًا فِي حُجْرَةٍ فَاخِرَةٍ، وَكَانَ يَصْحَبُنِي فِي نُزْهَتِي وَإِقَامَتِي، وَتُقِلُّنَا مَرْكَبَتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَقَدْ أَدْهَشَنِي مَا رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ مِنْ بُيُوتٍ خَرِبَةٍ، وَمَنَازِلَ مُهَدَّمَةٍ، وَحُقُولٍ جُرْدٍ؛ فَسَأَلْتُهُ عَنْ سِرِّ هَذَا الْخَرَابِ، فَوَعَدَنِي بِالْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِي فِي فُرْصَةٍ أُخْرَى.

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي سَارَ بِي حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةَ؛ فَرَأَيْنَا — عَلَى مَسَافَةِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنْهَا — دَسْكَرَةً (مَزْرعة) نَضِيرَةً وَقَصْرًا فَاخِرًا تَكْتَنِفُهُ بُيُوتٌ جَمِيلَةٌ وَرِيَاضٌ مُزْدَهِرَةٌ، فَعَجِبْتُ مِنْ جَمَالِهَا وَوَفْرَةِ مَحْصُولِهَا، وَسَأَلْتُهُ: «لِمَنْ هَذَا كُلُّهُ؟»



فَقَالَ لِي وَهُوَ يَتَنَهَّدُ مَحْزُونًا: «مِنْ هُنَا تَبْدَأُ أَمْلَاكِي، وَقَدْ كُنْتُ مُحَافِظًا لِلْمَدِينَةِ، وَأَقَالُونِي مِنْ ذَلِكَ الْمَنْصِبِ، وَهَزِئُوا بِي لِأَنَّنِي — فِيمَا يَزْعُمُونَ — رَجُلٌ رَجْعِيٌّ لَا أَصْلُحُ لِلْحُكْمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمُسْتَنِيرِ.»

(٣) آرَاءُ الْحَمْقَى

فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَزِيدَنِي إِيضَاحًا، فَقَالَ: «لَقَدْ حَلَّ بِبِلَادِنَا جَمَاعَةٌ مِنْ مُفَكِّرِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ، وَأَشَارُوا عَلَى حَاكِمِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَهْدِمَ بُيُوتَ الْأَهْلِينَ لِيُعِيدُوهَا عَلَى أَكْمَلِ طِرَازٍ؛ فَأَطَاعَهُمْ كَثِيرٌ مِمَّنْ خَلَبَتْهُمْ آرَاؤُهُمُ الْجَدِيدَةُ، وَشَذَّ عَنِ الطَّاعَةِ رَهْطٌ قَلِيلُونَ كُنْتُ أَنَا مِنْ بَيْنِهِمْ؛ فَأَصْبَحْنَا مَوْضِعَ السُّخْرِيَةِ إِلَى الْيَوْمِ.



وَهَدَمَ النَّاسُ بُيُوتَهُمْ، ثَمَّ عَجَزُوا عَنْ إِنْشَاءِ بُيُوتٍ أُخْرَى مِثْلِهَا أَوْ أَحْقَرَ مِنْهَا، فَعَجِبْتُ مِنْ جَهْلِ هَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدِينَ الْمَفْتُونِينَ بِالْآرَاءِ الْجَدِيدَةِ الْخَلَّابَةِ، مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا تَعَقُّلٍ.»

(٤) جَامِعَةُ «لاجادو»

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ زُرْتُ الْجَامِعَةَ؛ فَرَأَيْتُ الْعَجَبَ الْعُجَابَ، وَلَقِيتُ فِيهَا عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهَا أَشْعَثَ الشَّعْرِ، أَغْبَرَ الْوَجْهِ، فَحَدَّثَنِي أَنَّه ظَلَّ ثَمَانِيَ سَنَوَاتٍ يُفَكِّرُ فِي الِاهْتِدَاءِ إِلَى طَرِيقَةٍ يَحْجِزُ بِهَا أَشِعَّةَ الشَّمْسِ فِي أَوَانٍ مُقْفَلَةٍ؛ لِيُخْرِجَهَا مَتَى قَلَّتِ الْحَرَارَةُ، وَرَأَيْتُهُ يَسْبَحُ فِي عَالَمٍ مِنَ الْخَيَالِ بِلَا جَدْوَى.

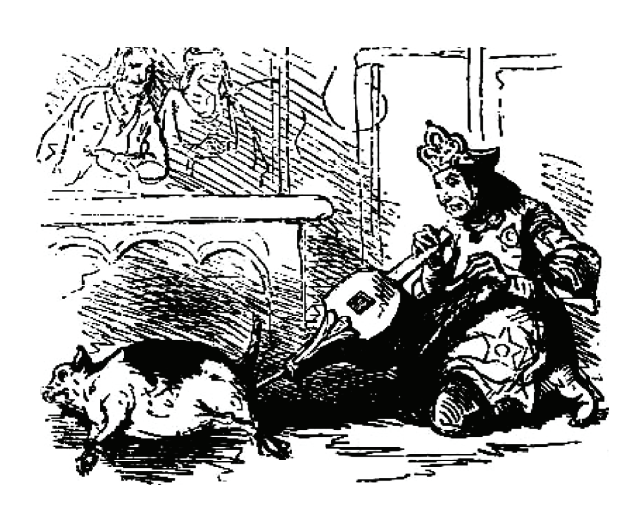


وَرَأَيْتُ عَالِمًا آخَرَ يُفَكِّرُ سِنِينَ عِدَّةً فِي طَرِيقَةٍ تُوَصِّلُهُ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْجَصِّ وَالْبَارُودِ مِنَ الزُّجَاجِ.



وَقَابَلْتُ مُهَنْدِسًا أَخْبَرَنِي أَنَّه قَدْ وُفِّقَ إِلَى اخْتِرَاعِ طَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ تُمَكِّنُهُ مِنْ أَنْ يَبْنِيَ الْمَنَازِلَ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ، كَمَا تَفْعَلُ الْعَنَاكِبُ وَالنَّحْلُ.

وَظَلَلْتُ أُحَادِثُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، وَأَعْجَبُ مِنْ خَيَالِهِمُ السَّقِيمِ. ثُمَّ شَعَرْتُ بِمَغْصٍ، فَأَدْخَلُونِي حُجْرَةَ طَبِيبٍ مَشْهُودٍ لَهُ بِالْبَرَاعَةِ، وَرَأَيْتُ مَعَهُ مِنْفَاخًا يَزْعُمُ أَنَّهُ يُزِيلُ بِهِ الْمَغْصَ. وَأَرَادَ أَنْ يُقْنِعَنِي بِبَرَاعَتِهِ؛ فَنَفَخَ بِهِ كَلْبًا، فَأَمَاتَهُ مِنْ فَوْرِهِ، فَشَهِدْتُ لَهُ بِالْبَرَاعَةِ فِي فَنِّهِ! فَخَجِلَ وَكَفَّ عَنْ عِلَاجِي.



وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ رِجَالِ اللُّغَةِ يَتَبَاحَثُونَ فِي طَرِيقَةٍ يُوَحِّدُونَ بِهَا اللُّغَاتِ. وَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْكَلَامَ يُتْعِبُ الصَّدْرَ، وَخَيْرٌ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ بِالْإِشَارَةِ عَنِ الْأَلْفَاظِ. وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّ أَفْضَلَ وَسِيلَةٍ لِلْكَلَامِ هِيَ أَنْ يَحْمِلَ فَوْقَ ظَهْرِهِ كُلَّ مَا يُرِيدُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ لِيَسْتَغْنِيَ بِحَمْلِهِ عَنِ النُّطْقِ بِاسْمِهِ.



وَهَكَذَا خَرَجْتُ مِنْ تِلْكَ الْجَامِعَةِ وَقَدْ مَلَكَتْنِي الْحَيْرَةُ وَالدَّهْشَةُ مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ خَبَلِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَتَخَبُّطِهِمْ. وَلَمْ تَكُنْ آرَاءُ عُلَمَاءِ السِّيَاسَةِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ فِي تِلْكَ الْجَامِعَةِ بِأَقَلَّ تَخَبُّطًا مِنْ آرَاءِ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ الْأَجِلَّاءِ!



الْفَصْلُ الْخَامِسُ

(١) فِي جَزِيرَةِ السَّحَرَةِ

إِذَا صَدَقَ حَدْسِي، وَلَمْ يُخْطِئْ ظَنِّي، فَإِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أُقَرِّرَ أَنَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ تَقَعُ فِي قَارَّةٍ لَا أَعْرِفُ اسْمَهَا. وَتَمْتَدُّ هَذِهِ الْقَارَّةُ إِلَى الشَّرْقِ صَوْبَ بِلَادٍ مَجْهُولَةٍ مِنَ الْقَارَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى الْغَرْبِ صَوْبَ «كاليفورْنيا»، ثُمَّ تَسِيرُ إِلَى الشَّمَالِ صَوْبَ الْمُحْيطِ الْهَادِي. وَلَا تَبْعُدُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ عَنْ «لاجادو» أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ وَمِائَةِ مِيلٍ.



وَلِهَذِهِ الْبِلَادِ مَرْفَأٌ (مِينَاءٌ) مَشْهُورٌ، وَتِجَارَةٌ وَاسِعَةٌ رَائِجَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَزِيرَةِ «لوجناج». وَتَقَعُ جَزِيرَةُ السَّحَرَةِ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا، قَرِيبًا مِنَ الدَّرَجَةِ الْعِشْرِينَ مِنْ خُطُوطِ الْعَرْضِ الشَّمَالِيَّةِ، وَالدَّرَجَةِ الْأَرْبَعِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ خُطُوطِ الطُّولِ.

وَتَقَعُ جَزِيرَةُ «لوجناج» هَذِهِ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْيَابَانِ. وَلَا تَبْعُدُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مِيلٍ.

وَقَدْ أُبْرِمَتْ مُعَاهَدَةٌ وَتَحَالَفٌ وَثِيقٌ بَيْنَ إِمْبَرَاطُورِ الْيَابَانِ وَمَلِكِ «لوجناج»؛ فَأُتِيحَتْ لِي بِذَلِكَ الْفُرَصُ لِلتَّنَقُّلِ بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْيَابَانِ. وَصَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى أَنْ أَسْلُكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ الْوَعْرَةَ إِلَى «أُورُوبَّا»؛ فَاكْتَرَيْتُ بَغْلَيْنِ لِحَمْلِ مَتَاعِي، وَاسْتَصْحَبْتُ دَلِيلًا لِإِرْشَادِي إِلَى الطَّرِيقِ، وَاسْتَأْذَنْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ — الَّذِي أَضَافَنِي وَرَأَيْتُ مِنْهُ كُلَّ إِكْرَامٍ — فَأَذِنَ، وَقَدَّمَ لِي هَدِيَّةً ثَمِينَةً. وَلَمْ يَقَعْ لِي — فِي أَثْنَاءِ سَفَرِي هَذَا — أَيُّ حَادِثٍ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ.



وَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى مِينَاءِ «لاجادو» لَمْ أَجِدْ سَفِينَةً مُتَأَهِّبَةً لِلْإِقْلَاعِ إِلَى «لوجناج». وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ «مالدونادا» مَدِينَةٌ فِي اتِّسَاعِ «بورتسموث» تَقْرِيبًا، ثُمَّ تَعَرَّفْتُ بِبَعْضِ أَهْلِهَا، وَقَدْ تَلَطَّفَ بِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَحَدَّثَنِي أَنَّه لَا يُمْكِنُ أَنْ تُبْحِرَ سَفِينَةٌ إِلَى «لوجناج» قَبْلَ شَهْرٍ؛

فَيَحْسُنُ بِي أَنْ أُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي بِسِيَاحَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةِ السَّحَرَةِ، وَهِيَ لَا تَبْعُدُ عَنَّا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَمْيَالٍ صَوْبَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ.

(٢) فِي قَصْرِ الْحَاكِمِ

ثُمَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَصْحَبَنِي وَصَدِيقًا لَهُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ إِلَى جَزِيرَةِ السَّحَرَةِ، وَأَعَدَّ زَوْرَقًا صَغِيرًا لِلذَّهَابِ إِلَيْهَا.

وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ غَايَةٌ فِي الْخُصُوبَةِ، يَحْكُمُهَا زَعِيمُ قَبِيلَةٍ جَمِيعُ أَهْلِهَا مِنَ السَّحَرَةِ، وَهُمْ لَا يُخَالِطُونَ أَحَدًا وَلَا يَتَّصِلُونَ بِالنَّاسِ، وَحَاكِمُهُمْ هُوَ أَكْبَرُ رِجَالِ الْقَبِيلَةِ سِنًّا.

وَهَذَا الْحَاكِمُ لَهُ قَصْرٌ فَخْمٌ، بِهِ حَدِيقَةٌ مِسَاحَتُهَا ثَلَاثَةُ آلَافِ فَدَّانٍ، يَكْتَنِفُهَا سُورٌ مِنَ الصَّخْرِ ارْتِفَاعُهُ عِشْرُونَ قَدَمًا، وَبِهَذِهِ الْحَدَائِقِ بَعْضُ حَظَائِرَ صَغِيرَةٍ لِسُكْنَى الدَّوَابِّ، وَخَزْنِ الْغِلَالِ.

وَيَقُومُ عَلَى خِدْمَةِ الْحَاكِمِ وَأُسْرَتِهِ جَمْهَرَةٌ مِنَ الْخَدَمِ، أَطْوَارُهُمْ غَرِيبَةٌ؛ فَهَذَا الْحَاكِمُ عَلِيمٌ بِالْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ، وَفِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَسْتَدْعِيَ الْمَوْتَى وَيَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى خِدْمَتِهِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً كَامِلَةً. وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ زَمَنًا أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ رُوحًا مَرَّةً أُخْرَى، قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ عَلَى الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِغَرَضٍ خَطِيرٍ.

وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ تَقْرِيبًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَذَهَبَ أَحَدُ رَفِيقَيَّ لِمُقَابَلَةِ الْحَاكِمِ، وَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ حَضَرَ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ يَرْجُو الْمُثُولَ بَيْنَ يَدَيْ سُمُوِّكُمْ.»

وَقَدْ أَجَابَ الْحَاكِمُ الرَّجَاءَ، فَذَهَبْنَا ثَلَاثَتُنَا إِلَى فِنَاءِ الْقَصْرِ، وَمَرَرْنَا بَيْنَ صَفَّيْنِ مِنْ رِجَالٍ مُسَلَّحِينَ مُرْتَدِينَ ثِيَابًا مِنَ الْأَزْيَاءِ الْقَدِيمَةِ. وَقَدْ أَحْدَثَ مَنْظَرُهُمْ عِنْدِي رُعْبًا وَفَزَعًا. ثُمَّ اجْتَزْنَا غُرَفًا أُخْرَى وَنَحْنُ نُشَاهِدُ فِيهَا خَدَمًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَأَيْنَاهُمْ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى غُرْفَةِ الْحَاكِمِ.

وَبَعْدَ أَنْ حَيَّيْنَاهُ — تَحِيَّةَ الْإِجْلَالِ وَالِاحْتِرَامِ — ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَجْلَسَنَا عَلَى كَرَاسِيَّ خَشَبِيَّةٍ صَغِيرَةٍ أَمَامَ عَرْشِهِ.

وَلَمَّا كَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ «بالنيارب» وَجَّهَ إِلَيَّ عِدَّةَ أَسْئِلَةٍ عَنْ سِيَاحَاتِي وَأَسْفَارِي.

وَأَرَادَ أَنْ يَتَبَسَّطَ مَعِي فِي الْحَدِيثِ، وَيُذْهِبَ الْكُلفَةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ فَأَشَارَ إِلَى جَمِيعِ الْخَدَمِ — بِإِصْبَعِهِ — أَنْ يَنْصَرِفُوا؛ فَاسْتَخْفَوْا فِي مِثْلِ طَرْفَةِ عَيْنٍ، كَأَنَّهُمْ خَيَالَاتٌ وَأَوْهَامٌ!

وَتَمَلَّكَنِي خَوْفٌ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُثَبِّتَ جَأْشِي (قَلْبِي) إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ. وَلَاحَظَ الْحَاكِمُ عَلَيَّ الْخَوْفَ؛ فَأَقْبَلَ يُطَيِّبُ خَاطِرِي وَيَهَشُّ لِي. وَلَمْ يُبْدِ رَفِيقَايَ شَيْئًا مِنَ الْجَزَعِ؛ لِأَنَّهُمَا تَعَوَّدَا أَمْثَالَ ذَلِكَ.

وَبَدَأْتُ أَتَمَالَكُ وَأَسْتَجْمِعُ، وَأَنْشَأْتُ أَقُصُّ عَلَى سُمُوِّهِ الْوَقَائِعَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي حَدَثَتْ لِي فِي أَسْفَارِي. وَكُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِي تَرَدُّدٍ، مُتَلَفِّتًا بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي اسْتَخْفَتْ فِيهَا أَشْبَاحُ الْخَدَمِ.

ثُمَّ دَعَانَا الْحَاكِمُ إِلَى الْغَدَاءِ، فَاسْتَجَبْنَا لِدَعْوَتِهِ، وَقَامَ عَلَى خِدْمَتِنَا جَمَاعَةٌ آخَرُونَ مِنَ الْخَدَمِ؛ فَلَبِثْنَا حَوْلَ الْمَائِدَةِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ. وَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّ خَوْفِي يَقِلُّ شَيْئًا فَشَيْئًا.

ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْنَا الْحَاكِمُ أَنْ نَبِيتَ لَيْلَتَنَا فِي قَصْرِهِ؛ فَتَوَسَّلْتُ إِلَى سُمُوِّهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيَّ بِالْإِعْفَاءِ مِنْ ذَلِكَ. وَذَهَبْتُ وَمَعِي صَدِيقَايَ نَبْحَثُ عَنْ سَرِيرٍ فِي فُنْدُقٍ فِي الْمَدِينَةِ الْمُجَاوِرَةِ وَهِيَ عَاصِمَةُ الْجَزِيرَةِ الصَّغِيرَةِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبْنَا إِلَى الْحَاكِمِ — كَمَا طُلِبَ منا — وَقَضَيْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ عَشَرَةَ أَيَّامٍ؛ فَكُنْتُ أَقْضِي أَكْبَرَ شَطْرٍ مِنَ الْيَوْمِ مَعَ الْحَاكِمِ، حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ذَهَبْنَا إِلَى فُنْدُقِنَا لِنَبِيتَ فِيهِ.

وَقَدِ انْتَهَى بِيَ الْأَمْرُ إِلَى أَنِ اخْتَلَطْتُ بِالْأَرْوَاحِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي أَزْيَاءِ الْخَدَمِ، وَتَعَوَّدْتُهَا، وَلَمْ أَخَفْ مِنْهَا كَمَا كُنْتُ أَخَافُ مِنْ قَبْلُ.

(٣) أَرْوَاحُ الْمَوْتَى

وَحَدَثَ يَوْمًا أَنْ طَلَبَ مِنِّي سُمُوُّهُ أَنْ أُعَيِّنَ لَهُ أَسْمَاءَ مَنْ أُرِيدُ مِنَ الْمَوْتَى لِيُحْضِرَهُمْ، وَيُكْرِهَهُمْ عَلَى أَنْ يُجِيبُوا عَمَّا أُلْقِي مِنْ أَسْئِلَةٍ، عَلَى شَرِيطَةِ أَلَّا أَسْأَلَهُمْ إِلَّا عَنِ الْمَاضِي، أَمَّا الْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ فَلَا شَأْنَ لَهُمْ بِهِمَا. وَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُمْ لَا يُقَرِّرُونَ غَيْرَ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الْكَذِبَ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْعَالَمِ الْآخَرِ.

فَقَبِلْتُ أَمْرَ سُمُوِّهِ بِمَوْفُورِ الشُّكْرِ. وَكُنَّا فِي حُجْرَةٍ تُشْرِفُ عَلَى مَنْظَرٍ بَدِيعٍ مِنَ الْحَدِيقَةِ، وَكَانَتْ رَغْبَتِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْ أَرَى شَيْئًا مِنَ الْمَوَاكِبِ الْفَخْمَةِ؛ فَقُلْتُ لِلْحَاكِمِ: «إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أَرَى «الْإِسْكَنْدَرَ الْأَكْبَرَ الْمَقْدُونِيَّ» عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ.»



وَمَا هِيَ إِلَّا إِشَارَةٌ مِنَ الْحَاكِمِ حَتَّى رَأَيْتُ «الْإِسْكَنْدَرَ الْأَكْبَرَ» وَجَيْشَهُ فِي مَيْدَانٍ فَسِيحٍ تَحْتَ النَّافِذَةِ الَّتِي نُطِلُّ مِنْهَا!

وَدَعَا الْحَاكِمُ «الْإِسْكَنْدَرَ» لِلصُّعُودِ إِلَى الْحُجْرَةِ؛ فَصَعِدَ وَجَلَسَ يَتَحَدَّثُ. وَقَدْ عَانَيْتُ كَثِيرًا فِي تَفَهُّمِ لُغَتِهِ الْيُونَانِيَّةِ؛ لِأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أُجِيدُهَا.

وَقَدْ أَقْسَمَ لِي بِشَرَفِهِ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ مَسْمُومًا، وَلَكِنَّ مَنِيَّتَهُ كَانَتْ بِسَبَبِ حُمَّى انْتَابَتْهُ مِنْ إِفْرَاطِهِ فِي الشَّرَابِ.

ثُمَّ رَأَيْتُ «هانيبالَ» وَهُوَ يَجْتَازُ «الألبَ»، وَقَالَ لِي: إِنَّ مَا عِنْدَ جَيْشِهِ مِنَ الزَّادِ قَدْ نَفِدَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ. ثُمَّ رَأَيْتُ «يوليوس قيصَرَ» و«بُومْبِي»، وَرَأَيْتُ كُلًّا مِنْهُمَا عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ، يَتَأَهَّبَانِ لِلْمَعْرَكَةِ، وَرَأَيْتُ الْأَوَّلَ فِي عِزَّةٍ وَنُصْرَةٍ (حُسْنِ مَعُونَةٍ).

وَأَرَدْتُ أَنْ أَرَى مَجْلِسَ الشُّيُوخِ الرُّومَانِيَّ، فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ؛ فَبَدَا لِي فِي حَشْدِهِ الْكَامِلِ، ثُمَّ أَشَارَ الْحَاكِمُ — تَلْبِيَةً لِرَغْبَتِي — إِلَى «قيصرَ» و«بروتسَ» بِالتَّقَدُّمِ؛ فَدَاخَلَنِي إِعْجَابٌ

وَاحْتِرَامٌ لِرُؤْيَةِ «بروتس» وَتَبَيَّنْتُ مِنْ قَسَمَاتِ وَجْهِهِ آيَاتِ الشَّجَاعَةِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ، وَقُوَّةَ الْعَزِيمَةِ الَّتِي لَا تُغْلَبُ، وَالتَّفَانِي فِي حُبِّ وَطَنِهِ؛ شَمَائِلَ عَالِيَةً يَزِينُهَا لُطْفٌ كَبِيرٌ وَكَرَمٌ عَظِيمٌ.

وَلَاحَظْتُ — مُغْتَبِطًا — أَنَّ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ كَانَا عَلَى أَتَمِّ وِفَاقٍ. وَقَدْ كَاشَفَنِي «قيصرُ» أَنَّ كُلَّ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ فَضَائِلَ، كَانَ أَقَلَّ مِمَّا تَمَيَّزَ بِهِ «بروتس» عِنْدَمَا قَتَلَهُ!

وَكَانَ لِيَ الشَّرَفُ أَنْ تَحَدَّثْتُ وَقْتًا طَوِيلًا مَعَ «بروتس»، فَقَالَ لِي: إِنَّ جَدَّهُ «جونيوس» كَانَ صَدِيقَ «سُقْرَاطٍ»، وَقَدِ اسْتَعَانَ كِلَاهُمَا بِبَعْضِ أَصْدِقَائِهِمَا فِي تَأْلِيفِ مَجْمَعٍ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ «مَجْمَعَ السِّتَّةِ». وَكَانُوا أَفْذَاذَ الْعَالَمِ وَقَادَةَ الْفِكْرِ، وَلَمْ تَظْفَرِ الدُّنْيَا بِأَمْثَالِهِمْ فِي طُوالِ الْعُصُورِ.

وَإِنِّي لَأُحَمِّلَ الْقَارِئَ جَهْدًا، إِذَا أَنَا ذَكَرْتُ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ طَلَبْتُ دَعْوَتَهُمْ، لِرَغْبَتِي الْمُلِحَّةِ فِي أَنْ أَرَى جَمِيعَ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ مَاثِلَةً أَمَامَ عَيْنِي!



وَإِنِّي لَأُمَتِّعُ الْقُرَّاءَ، إِذَا ذَكَرْتُ لَهُمْ مَا شَهِدْتُهُ مِنَ الْمُدَمِّرِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالْمُغْتَصِبِينَ، وَمِنْ قَادَةِ الْأُمَمِ وَمُحَرِّرِي الشُّعُوبِ. وَلَكِنْ يَتَعَذَّرُ عَلَيَّ أَنْ أُعْرِبَ عَنْ غِبْطَتِي وَارْتِيَاحِي، حِينَ شَهِدْتُ تَارِيخَ الْمَاضِي بِجَمِيعِ صُوَرِهِ مَاثِلًا أَمَامَ عَيْنَيَّ فِي وُضُوحٍ وَجَلَاءٍ!

(٤) مَعَ الْقُدَمَاءِ

وَلَمَّا كُنْتُ شَدِيدَ الرَّغْبَةِ فِي رُؤْيَةِ الْقُدَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِرَجَاحَةِ الْعَقْلِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ، عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُخَصِّصَ الْيَوْمَ التَّالِيَ لِذَلِكَ.

فَطَلَبْتُ أَنْ يَظْهَرَ لِيَ «هوميروس» و«أرسططاليس» وَغَيْرُهُمْ مِنْ قَادَةِ الْفِكْرِ، وَدَارَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مُنَاقَشَاتٌ طَوِيلَةٌ، وَرَأَيْتُ أَغْلَبَ أَبَاطِرَةِ الرُّومَانِ وَأَبْطَالِ الْمَعَارِكِ وَالْحُرُوبِ، وَقَضَيْتُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ أَتَحَدَّثُ إِلَى أَفْذَاذِ الْعُلَمَاءِ وَكِبَارِ الرِّجَالِ مِنَ الْعُصُورِ الْغَابِرَةِ.

وَاسْتَدْعَى الْحَاكِمُ بَعْضَ الطُّهَاةِ مِنَ الْقُدَمَاءِ لِتَهْيِئَةِ غَدَائِنَا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُظْهِرُوا كُلَّ مَهَارَتِهِمْ لِعَدَمِ تَوَفُّرِ الْمُعَدَّاتِ اللَّازِمَةِ.

وَكَانَ رَفِيقَايَ اللَّذَانِ جَاءَا بِي إِلَى الْجَزِيرَةِ مُضْطَرَّيْنِ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بَلَدِهِمَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ فَقَضَيْتُ هَذِهِ الْمُدَّةَ فِي مُشَاهَدَةِ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأَخِيرَةِ، سَوَاءٌ أَكَانُوا مِنْ بِلَادِي أَمْ مِنَ الْبِلَادِ الْأُخْرَى.

(٥) ظُلْمُ الْمُؤَرِّخِينَ

وَكُنْتُ شَدِيدَ الشَّوْقِ إِلَى رُؤْيَةِ النُّبَلَاءِ؛ فَطَلَبْتُ إِلَى الْحَاكِمِ أَنْ يُرِيَنِي جَمْهَرَةً مِنْهُمْ، فَفَعَلَ. وَاشْتَدَّتْ دَهْشَتِي حِينَ تَكَشَّفَ لِي مِنْ تَارِيخِ هَؤُلَاءِ النُّبَلَاءِ أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ رَفَعُوا رِجَالًا أَنْذَالًا أَوْ أَغْبِيَاءَ، إِلَى صُفُوفِ الْقُوَّادِ وَالْعُظَمَاءِ. وَوَصَفُوا طَائِفَةً مِنَ الْجَهَلَةِ بِالْأَلْمَعِيَّةِ وَبُعْدِ النَّظَرِ وَخُدِعُوا فِي بَعْضِ الْمُتَمَلِّقِينَ، فَسَلَكُوهُمْ فِي عِدَادِ السَّرَاةِ الْمَاجِدِينَ، وَنَعَتُوا بَعْضَ الْأَشْرَارِ بِالطُّهْرِ وَالصَّلَاحِ. وَظَلَمُوا جَمْهَرَةً مِنَ الْأَخْيَارِ فَوَضَعُوهُمْ فِي صَفِّ الْخَوَنَةِ الْمَارِقِينَ. وَتَكَشَّفَتْ لِي فِئَةٌ مِنَ الْأَبْرِيَاءِ الَّذِينَ صَدَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقَتْلِ وَالنَّفْيِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، مِنْ جَرَّاءِ الدَّسَائِسِ وَالْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي أَحْكَمَ تَدْبِيرَهَا أَعْدَاؤُهُمْ، حَتَّى خُدِعَ الْقَضَاءُ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَنْزَلَ بِهِمْ حُكْمَهُ الْجَائِرَ؛ فَعَدَّهُمْ مُعَاصِرُوهُمْ — ظُلْمًا — فِي الْمُجْرِمِينَ وَالْأَشْرَارِ!

وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ سَاقِطِي الْمُرُوءَةِ الْأَدْنِيَاءِ، قَدْ رُفِعُوا إِلَى أَسْمَى مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ، وَوَصَلُوا إِلَى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ، بِأَسَالِيبَ يَتَرَفَّعُ عَنْهَا كُلُّ مَاجِدٍ شَرِيفٍ سَرِيِّ النَّفْسِ!

وَثَمَّةَ أَدْرَكْتُ حَقَائِقَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَوَادِثِ الْغَامِضَةِ الَّتِي أَدْهَشَتِ الْعَالَمَ وَحَيَّرَتِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَبَلْبَلَتْ خَوَاطِرَهُمْ، وَتَكَشَّفَ لِي مِنْ أَسْرَارِهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لِأَحَدٍ عَلَى بَالٍ.

وَقَدِ اعْتَرَفَ لِي قَائِدٌ مِنْ قُوَّادِ الْجُيُوشِ أَنَّهُ ظَفِرَ بِالِانْتِصَارِ — فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ — بِفَضْلِ خَطَئِهِ وَغَفْلَتِهِ وَعَدَمِ تَبَصُّرِهِ! وَحَدَّثَنِي قَائِدٌ آخَرُ: أَنَّهُ تَحَالَفَ عَلَى خِيَانَةِ وَطَنِهِ وَبَيْعِهِ لِأَعْدَائِهِ، وَأَنَّهُ عَرَّضَ أُسْطُولَ بِلَادِهِ غَنِيمَةً بَارِدَةً لِمَدَافِعِ الْعَدُوِّ، وَلَكِنَّ الْقَدَرَ عَاكَسَهُ،

فَاضْطُرَّ جُنُودُهُ إِلَى إِطْلَاقِ مَدَافِعِهِمْ عَلَى الْعَدُوِّ، وَتَمَّ لَهُ بِذَلِكَ كَسْبُ الْمَعْرَكَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُ، وَسُلِكَ فِي عِدَادِ الْأَبْطَالِ!

وَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ أَفْذَاذِ الزُّعَمَاءِ الَّذِينَ أَسْدَوْا أَجَلَّ الْخَدَمَاتِ لِلْعَالَمِ، وَوَهَبُوا نُفُوسَهُمْ لِلْخَيْرِ، وَقَدْ نَسِيَهُمُ التَّارِيخُ، وَعَفَّى عَلَيْهِمْ، وَأَغْفَلَ أَسْمَاءَهُمْ إِغْفَالًا.

(٦) جَزَاءُ الْإِخْلَاصِ

وَرَأَيْتُ شَيْخًا مَحْزُونًا مُشَرَّدَ الْفِكْرِ، وَإِلَى جَانِبِهِ فَتًى فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ لَا يَتَجَاوَزُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَصْدَرِ أَحْزَانِهِ وَمَبْعَثِ آلَامِهِ؛ فَقَصَّ عَلَيَّ قِصَّتَهُ الْمُحْزِنَةَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْفَتَى الَّذِي تَرَاهُ هُوَ وَلَدِي، وَقَدْ فَقَدْتُهُ فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ، وَقَضَى نَحْبَهُ وَهُوَ يُدَافِعُ عَنِ الْوَطَنِ إِلَى جَانِبِي.

وَقَدْ كُنْتُ قَائِدَ بَارِجَةٍ حَرْبِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَأَبْلَيْتُ فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ أَحْسَنَ بَلَاءٍ، حَتَّى هَزَمْتُ الْأَعْدَاءَ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً. وَقَدْ كَلَّفَنِي ذَلِكَ الِانْتِصَارُ ثَمَنًا غَالِيًا هُوَ فَقْدِي هَذَا الْفَتَى، وَكَانَ وَحِيدِي وَسَلْوَتِي فِي الْحَيَاةِ!»

ثُمَّ بَكَى الرَّجُلُ — مُتَأَلِّمًا — وَاسْتَأْنَفَ كَلَامَهُ قَائِلًا: «وَلَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا عُدْتُ إِلَى وَطَنِي أَلْتَمِسُ الْمُكَافَأَةَ عَلَى مَا قَدَّمْتُ لِبِلَادِي مِنْ خَيْرٍ، وَطَلَبْتُ أَنْ أُرَقَّى إِلَى مَنْصِبِ قَائِدِ الْأُسْطُولِ الْعَامِّ الَّذِي قُتِلَ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ؛ فَلَمْ يُصْغِ أَحَدٌ إِلَى كَلَامِي، وَآثَرُوا بِذَلِكَ الْمَنْصِبِ الرَّفِيعِ — الَّذِي أَسْتَحِقُّهُ بِجَدَارَةٍ — فَتًى فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِرُكُوبِ الْبِحَارِ، وَخَوْضِ الْمَعَارِكِ، وَرَأَوْا أَنَّ الْغِرَّ الْمَفْتُونَ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ أَجْدَرُ مِنِّي بِالرِّيَاسَةِ، وَأَحَقُّ بِالْمَجْدِ. وَإِنَّمَا آثَرُوا عَلَيَّ هَذَا الْفَتَى لِأَنَّهُ ابْنُ جَارِيَةٍ مُقَرَّبَةٍ مِنَ الْإِمْبِرَاطُورِ، فَلَمَّا ضَجِرْتُ بِالْغَبْنِ، وَرَفَعْتُ ظُلَامَتِي أَطْلُبُ إِنْصَافِي، غَضِبَ عَلَيَّ أُولُو الْأَمْرِ، وَاتَّهَمُونِي بِالْإِهْمَالِ وَالتَّقْصِيرِ فِي وَاجِبِي، وَعَاقَبُونِي — عَلَى ذَلِكَ — أَشْنَعَ عِقَابٍ.

فَاعْتَزَلْتُ الْعَالَمَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — وَقَضَيْتُ بَقِيَّةَ حَيَاتِي فِي دَسْكَرَةٍ (مزرعة) صَغِيرَةٍ، بَعِيدَةٍ عَنِ الْحَاضِرَةِ، وَآثَرْتُ هَجْرَ النَّاسِ، وَالْبُعْدَ عَنْ مَكَائِدِهِمْ وَأَحْقَادِهِمْ.»

الْفَصْلُ السَّادِسُ

(١) عَوْدَةُ «جَلِفَر»

وَحَانَ يَوْمُ الرَّحِيلِ مِنْ جَزِيرَةِ السَّحَرَةِ، فَاسْتَأْذَنْتُ الْحَاكِمَ فِي الْعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ، فَأَذِنَ لِي بِذَلِكَ، فَسَافَرْتُ مَعَ رَفِيقَيَّ عَائِدَيْنِ إِلَى «مالدونادا»، وَبَقِينَا بِهَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا مُتَرَقِّبِينَ مَقْدَمَ السَّفِينَةِ الْمُسَافِرَةِ إِلَى «لوجناج». حَتَّى إِذَا حَلَّ مَوْعِدُ السَّفَرِ رَكِبْتُهَا بَعْدَ أَنْ زَوَّدَنِي رَفِيقَايَ وَأَصْحَابُهُمَا بِكُلِّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ.



وَلَبِثْنَا فِي السَّفِينَةِ شَهْرًا كَامِلًا، وَهِيَ تَمْخُرُ بِنَا عُبَابَ الْبَحْرِ، ثُمَّ هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ هَوْجَاءُ؛ فَاضْطَرَّتْنَا إِلَى تَحْوِيلِ السَّفِينَةِ صَوْبَ الشَّمَالِ؛ لِتُسَاعِدَنَا الرِّيَاحُ التِّجَارِيَّةُ الَّتِي تَهُبُّ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ.

وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ أبريلَ عام ١٧٠٨م دَانَيْنَا مِينَاءَ «شوجنج»، وَأَلْقَيْنَا مَرَاسِيَ سَفِينَتِنَا عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِنْهَا بِالْقُرْبِ مِنْ أَحَدِ أَنْهَارِهَا الْكَبِيرَةِ، وَلَبِثْنَا نَتَرَقَّبُ وُصُول

الدَّلِيلِ. وَلَمْ يَمْضِ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْنَا دَلِيلَانِ، ثُمَّ صَعِدَا إِلَى سَفِينَتِنَا وَسَارَا بِهَا نَحْوَ الشَّاطِئِ خِلَالَ الصُّخُورِ الْخَطِرَةِ الْمُنْبَثَّةِ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ، حَتَّى بَلَغْنَا الشَّاطِئَ آمِنِينَ.

(٢) كَاتِبُ الْمِينَاءِ

وَسَأَلَنَا الدَّلِيلَانِ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْنَا؟ فَأَجَابَهُمَا أَحَدُ الْبَحَّارَةِ: «إِنَّنَا قَادِمُونَ مِنْ مالدونادا.» ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمَا أَنَّنِي سَائِحٌ أَجْنَبِيٌّ عَظِيمُ الْخَطَرِ.

وَلَقَدْ أَسَاءَ إِلَيَّ ذَلِكَ الْبَحَّارُ أَبْلَغَ إِسَاءَةٍ حِينَ أَفْضَى إِلَيْهِمَا بِأَنَّنِي غَرِيبٌ عَنْ تِلْكَ الْبِلَادِ. وَمَا أَدْرِي: أَيُّ شَيْءٍ حَفَزَهُ إِلَى أَنْ يُخْبِرَهُمَا بِذَلِكَ؟ وَلَنْ يَعْدُوَ أَمْرُهُ أَحَدَ احْتِمَالَيْنِ: فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ خِيَانَتِي، وَقَصَدَ إِلَى إِيذَائِي، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَصِيرَ النَّظَرِ مَأْفُونَ الرَّأْيِ. وَهُوَ فِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ مُسِيءٌ مَلُومٌ.

وَمَا عَلِمَ الدَّلِيلَانِ أَنَّنِي أَجْنَبِيٌّ عَنِ الْبِلَادِ، حَتَّى أَفْضَيَا إِلَى كَاتِبِ الْمِينَاءِ بِمَا سَمِعَاهُ مِنَ الْبَحَّارِ؛ فَصَبَرَ عَلَيَّ، حَتَّى إِذَا وَطِئَتْ قَدَمَايَ أَرْضَ الْمَدِينَةِ سَأَلَنِي عَنِ اسْمِي وَبَلَدِي؛ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي، وَكَتَمْتُ عَنْهُ اسْمَ بَلَدِي، وَتَظَاهَرْتُ أَمَامَهُ بِأَنَّنِي رَجُلٌ هُولَنْدِيٌّ، وَزَعَمْتُ أَنَّنِي قَدِمْتُ مِنْ «هُولَنْدَا» قَاصِدًا إِلَى الْيَابَانِ.

وَإِنَّمَا اضْطُرِرْتُ إِلَى تَلْفِيقِ هَذِهِ الْقِصَّةِ لِأَنَّنِي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ فِي بِلَادِهِمْ غَيْرَ الْهُولَنْدِيِّينَ!

وَقَصَصْتُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنَّنِي كِدْتُ أُسْلَكُ فِي عِدَادِ الْغَرْقَى بِالْقُرْبِ مِنْ شَاطِئِ «بالنيارب»، وَلَكِنَّ اللهَ أَنْقَذَنِي مِنَ الْغَرَقِ، بَعْدَ أَنْ ظَفِرْتُ بِصَخْرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ.

وَذَكَرْتُ لَهُ مَا رَأَيْتُهُ فِي الْجَزِيرَةِ الطَّيَّارَةِ مِنَ الْعَجَائِبِ، ثُمَّ خَتَمْتُ كَلَامِي ضَارِعًا إِلَيْهِ أَنْ يُسَهِّلَ لِي أَسْبَابَ السَّفَرِ إِلَى الْيَابَانِ، حَيْثُ أُبْحِرُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِي.

(٣) أَسْرُ «جَلِفَر»

وَلَمْ أَنْتَهِ مِنْ قِصَّتِي وَضَرَاعَتِي حَتَّى فَاجَأَنِي الْكَاتِبُ بِأَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى الْقَبْضِ عَلَيَّ، حَتَّى يَعْرِضَ أَمْرِي عَلَى الْمَلِكِ. وَوَعَدَنِي بِأَنْ يُسْرِعَ فِي الْكِتَابَةِ إِلَى الْبَلَاطِ مِنْ فَوْرِهِ، وَلَنْ يَتَأَخَّرَ الرَّدُّ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

ثُمَّ أَمَرَ الْكَاتِبُ رِجَالَهُ أَنْ يُودِعُونِي فِي غُرْفَةٍ مُنْفَرِدَةٍ، وَأَنْ يُقِيمُوا عَلَى بَابِهَا حَارِسًا يُرَاقِبُنِي حَتَّى لَا أَهْرُبَ. وَكَانَ أَمَامَ هَذِهِ الْحُجْرَةِ حَدِيقَةٌ فَسِيحَةٌ ظَلَلْتُ أَتَنَزَّهُ فِيهَا كُلَّمَا أَرَدْتُ، لِأُرَفِّهَ عَنْ نَفْسِي آلَامَ الْوَحْشَةِ، وَأَحْزَانَ الْغُرْبَةِ.

وَزَارَنِي كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ، وَتَمَلَّكَتْهُمُ الدَّهْشَةُ إِذْ رَأَوْا أَمَامَهُمْ رَجُلًا قَادِمًا مِنْ بَلَدٍ سَحِيقٍ لَمْ يَسْمَعُوا بِاسْمِهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ.

وَاضْطُرِرْتُ إِلَى اسْتِدْعَاءِ فَتًى مِنْ رِفَاقِي فِي السَّفِينَةِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ «لوجناج»، يُجِيدُ لُغَةَ «مالدونادا»؛ لِأَنَّهُ قَضَى فِيهَا سَنَوَاتٍ عِدَّةً، فَكَانَ خَيْرَ تَرْجُمَانٍ بَيْنِي وَبَيْنَ كُلِّ مَنْ تَفَضَّلَ عَلَيَّ بِالزِّيَارَةِ مِنْ أَهْلِ «لوجناج»، وَسَهَّلَ عَلَيَّ أَسْبَابَ التَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ، وَالْإِجَابَةِ عَنْ أَسْئِلَتِهِمْ.

(٤) كِتَابُ الْمَلِكِ

وَلَمَّا حَلَّ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ جَاءَ كِتَابُ الْمَلِكِ يَأْمُرُ بِأَنْ أُرْسَلَ إِلَيْهِ فِي عَشَرَةٍ مِنْ فُرْسَانِهِ يَحْرُسُونَنِي حَتَّى أَمْثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَصْحَبْتُ ذَلِكَ التَّرْجُمَانَ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى اقْتَرَبْنَا مِنَ الْحَاضِرَةِ.

فَبَعَثَ رِفَاقِي رَسُولًا إِلَى الْمَلِكِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ بِتَحْدِيدِ السَّاعَةِ الَّتِي يَأْذَنُ لِي أَنْ أَشْرُفَ بِالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِيهَا. وَظَلَّ رِفَاقِي يُدَرِّبُونَنِي عَلَى نِظَامِهِمُ الْعَجِيبِ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ، حَتَّى مَرَنْتُ عَلَى تَقَالِيدِهِمْ، وَعَرَفْتُ كَيْفَ أُقَبِّلُ سُلَّمَ عَرْشِ الْمَلِكِ الرُّخَامِيَّ، وَكَيْفَ أُقَابِلُ جَلَالَتَهُ وَأَنَا أَزْحَفُ عَلَى بَطْنِي، وَأُزِيلُ تُرَابَ الْأَرْضِ بِلِسَانِي.

وَرَأَوْا أَنْ يُسَهِّلُوا لِي أَسْبَابَ اللِّقَاءِ، وَيُهَوِّنُوهَا عَلَيَّ، لِأَنَّنِي أَجْنَبِيٌّ لَمْ أَتَعَوَّدْ أَمْثَالَ هَذِهِ التَّقَالِيدِ الشَّاذَّةِ؛ فَأَمَرُوا بِغَسْلِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يُضَايِقَنِي التُّرَابُ. وَقَدْ عَلِمْتُ — فِيمَا بَعْدُ — أَنَّ هَذَا عَطْفٌ نَادِرٌ خَصَّنِي بِهِ الْمَلِكُ، وَأَفْرَدَنِي بِهِ؛ فَإِنَّ سَرَاةَ الدَّوْلَةِ وَعُظَمَاءَهَا لَمْ يَظْفَرُوا بِمِثْلِ هَذَا الْعَطْفِ.

وَكَانَ مِنْ تَقَالِيدِهِمْ أَنْ يُهِيلُوا التُّرَابَ عَلَى الْأَرْضِ إِذَا قَدِمَ أَحَدُ الْأَعْدَاءِ، أَوِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، لِيَضْطَرُّوهُ إِلَى اسْتِفَافِ التُّرَابِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ — ذَاتَ مَرَّةٍ — عَظِيمًا مِنْ عُظَمَاءِ الدَّوْلَةِ قَدِ امْتَلَأَ فُوهُ بِالتُّرَابِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الْعَرْشِ حَتَّى اسْتَحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَقَدْ أَصْبَحَ فِي مَوْقِفٍ حَرِجٍ لَا سَبِيلَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ تَقَالِيدَهُمْ لَا تَسْمَحُ لِأَحَدٍ مِنَ الْقَادِمِينَ أَنْ يَبْصُقَ أَوْ يَمْسَحَ فَاهُ وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَهِي تُنَكِّلُ بِمَن يُخَالِفُ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّكَالِ.

(٥) مُعَاقَبَةُ الْأَشْرَافِ

وَلِهَذَا الْمَلِكِ أُسْلُوبٌ غَرِيبٌ فِي التَّنْكِيلِ بِكُلِّ مَنْ يَحِقُّ عَلَيْهِ غَضَبُهُ مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ وَسَرَاةِ الْمَمْلَكَةِ وَرِجَالِ الْحَاشِيَةِ، فَهُوَ إِذَا أَرَادَ إِهْلَاكَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَلْجَأْ إِلَى صَلْبِهِ أَوْ إِحْرَاقِهِ أَوْ قَتْلِهِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى لَا يَمْتَهِنَ كَرَامَتَهُ وَشَرَفَهُ بِهَذِهِ الْقِتْلَةِ الَّتِي يَقْتُلُ بِهَا عَامَّةَ شَعْبِهِ!

بَلْ يَدَّخِرُ لِهَؤلاءِ الْأَشْرَافِ وَسِيلَةً أُخْرَى لِإِهْلَاكِهِمْ، تُمَيِّزُهُمْ مِنْ سَوَادِ الشَّعْبِ وَالدَّهْمَاءِ، فَهُوَ يَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ أَنْ يُلْقُوا عَلَى الْأَرْضِ مَسْحُوقًا — فِي مِثْلِ لَوْنِ التُّرَابِ — مِنَ السَّمِّ الزُّعَافِ، ثُمَّ يَأْمُرُهُمْ بِاسْتِدْعَاءِ ذَلِكَ الْعَظِيمِ إِلَيْهِ، حَتَّى إِذَا مَثَلَ فِي حَضْرَتِهِ، وَاضْطَرَّتْهُ التَّقَالِيدُ إِلَى أَنْ يَسْتَفَّ التُّرَابَ — وَهُوَ مُخْتَلِطٌ بِذَلِكَ السَّمِّ الْقَاتِلِ — دَبَّ فِي عُرُوقِهِ دَبِيبُ الْهَلَاكِ، وَمَاتَ فِي خِلَالِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَنَسُوا الْأَرْضَ وَغَسَلُوهَا؛ حَتَّى لَا يَتَعَرَّضَ أَحَدٌ مِنَ الْبُرَآءِ لِلْهَلَاكِ مِنْ بَعْدِهِ. وَإِذَا قَصَّرَ الْخَدَمُ فِي ذَلِكَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ الصَّارِمُ.

وَلَقَدَ غَفَلَ — ذَاتَ مَرَّةٍ — أَحَدُ الْغِلْمَانِ الَّذِينَ نِيطَ بِهِمْ تَنْظِيفُ الْأَرْضِ، وَقَصَّرَ فِي غَسْلِهَا؛ فَحَدَثَ أَنَّ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَاءِ الدَّوْلَةِ رَاحَ ضَحِيَّةَ هَذَا الْإِهْمَالِ، وَسَرَى السَّمُّ فِي جِسْمِهِ، فَغَضِبَ لِمَوْتِهِ الْمَلِكُ وَأَمَرَ بِجَلْدِ الْغُلَامِ بِالسِّيَاطِ عِقَابًا لَهُ عَلَى إِهْمَالِهِ، ثُمَّ دَفَعَتْهُ الشَّفَقَةُ وَالْحُنُوُّ — بَعْدَ ذَلِكَ — إِلَى أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ، وَيُعْفِيَهُ مِنَ الْجَلْدِ، وَيَكْتَفِي بِتَأْنِيبِهِ عَلَى تَقْصِيرِهِ الشَّنِيعِ.

(٦) فِي ضِيَافَةِ الْمَلِكِ

وَلَمَّا حَانَ مَوْعِدُ مُثُولِي بَيْنَ يَدَيْ جَلَالَتِهِ، وَأَصْبَحْتُ عَلَى بُعْدِ أَرْبعِ خُطُوَاتٍ مِنَ الْعَرْشِ، جَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَلَطَمْتُ الْأَرْضَ بِجَبْهَتِي سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَطَقْتُ بِجُمْلَةٍ لُقِّنْتُهَا تَلْقِينًا

— لِأَنَّنِي كُنْتُ أَجْهَلُ لُغَتَهُمْ — وَمَعْنَاهَا: «فَلْيَعِشْ جَلَالَةُ الْمَلِكِ السَّمَاوِيِّ، وَلْتُشْرِقْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَحَدَ عَشَرَ قَمَرًا وَنِصْفَ قَمَرٍ!»

فَرَدَّ الْمَلِكُ عَلَى تَحِيَّتِي بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، فَاسْتَأْنَفْتُ قَائِلًا — كَمَا لُقِّنْتُ — جُمْلَةً مَعْنَاهَا: «إِنَّ لِسَانِي عِنْدَ صَاحِبِي!»

فَأَدْرَكَ الْمَلِكُ أَنَّنِي عَاجِزٌ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَتِهِ، وَأَنَّنِي جَعَلْتُ تَرْجُمَانِي وَسِيلَةً لِلتَّفَاهُمِ بَيْنَنَا.

فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ ذَلِكَ الْفَتَى التَّرْجُمَانِ. وَظَلَّ يَسْأَلُنِي أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ، وَأَنَا أُجِيبُهُ بِلُغَةِ «بالنيارب» فَيَنْقُلُ التَّرْجُمَانُ كَلَامِي إِلَى لُغَةِ «لوجناج».



وَلَمْ يَنْتَهِ ذَلِكَ الْحِوَارُ حَتَّى أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِحَدِيثِي إِعْجَابًا شَدِيدًا، وَأَمَرَ كَبِيرَ الْحَاشِيَةِ أَنْ يُعِدَّ لِي وَلِتَرْجُمَانِي مَكَانًا فِي قَصْرِهِ، وَأَنْ يُعْنَى بِأَمْرِي، وَيَمْنَحَنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ كِيسًا مَمْلُوءًا بِالذَّهَبِ؛ لِأُنْفِقَ مِنْهُ كَمَا أَشَاءُ وَفْقَ مَا يَحْلُو لِي.

وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَقَدْ غَمَرَنِي الْمَلِكُ بِعَطْفِهِ، وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي إِرْضَائِي وَالتَّحَبُّبِ إِلَيَّ؛ رَغْبَةً مِنْهُ فِي أَنْ يَسْتَبْقِيَنِي عِنْدَهُ طُولَ حَيَاتِي.

وَلَكِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ طَوِيلًا؛ فَقَدْ لَجَّ بِيَ الشَّوْقُ إِلَى رُؤْيَةِ بَلَدِي وَقَضَاءِ بَقِيَّةِ أَيَّامِ حَيَاتِي بَيْنَ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي.

الْفَصْلُ السَّابِعُ

(١) أَهْلُ «لوجناج»

أَهْلُ «لوجناج» — كَمَا عَرَفْتُهُمْ — شَعْبٌ مَوْفُورُ الْأَدَبِ، عَظِيمُ الشَّهَامَةِ — شَأْنُ كُلِّ شَعْبٍ شَرْقِيٍّ — وَرُبَّمَا أَخَذْتُ عَلَى أَفْرَادِهِ شَيْئًا مِنَ الزَّهْوِ وَالِاعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ. وَهُمْ يَغْمُرُونَ ضُيُوفَهُمُ الْأَجَانِبَ بِحُبِّهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا ظَفِرَ هَؤُلَاءِ الضُّيُوفُ بِعَطْفِ مَلِيكِ الْبِلَادِ، وَأَصَابُوا مَنْزِلًا مَحُوطًا بِرِعَايَةِ جَلَالَتِهِ.



وَقَدْ عَرَفْتُ كَثِيرًا مِنْ سَرَاةِ هَذَا الْقُطْرِ وَأَعْيَانِهِ، وَتَبَادَلْتُ وَإِيَّاهُمْ أَحَادِيثَ مُعْجِبَةً نَافِعَةً، وَقَدْ يَسَّرَ لِي أَسْبَابَ الْحِوَارِ مَعَهُمْ تَرْجُمَانِي الَّذِي صَحِبْتُهُ مَعِي فِي رِحْلَتِي إِلَى «لوجناج».

(٢) الْمُخَلَّدُونَ

وَكَانَ أَعْجَبَ مَا سَمِعْتُهُ — فِي تِلْكَ الْبِلَادِ — حَدِيثُ بَعْضِ رِفَاقِي عَنْ جَمَاعَةِ الْمُخَلَّدِينَ، فَقَدْ سَأَلَنِي أَحَدُ أَصْدِقَائِي: «أَلَمْ تَرَ الْمُخَلَّدِينَ فِي بِلَادِنَا؟»

فَعَجِبْتُ مِنْ سُؤَالِهِ أَشَدَّ الْعَجَبِ، وَسَأَلْتُهُ مَدْهُوشًا: «وَهَلْ فِي الدُّنْيَا خَالِدٌ؟ وَكَيْفَ يُكْتَبُ الْخُلُودُ لِأَحَدٍ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ؟ وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى رُؤْيَةِ أُولَئِكَ الْخَالِدِينَ؟»



فَقَالَ لِي: «عِنْدَنَا فِئَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الْخَالِدِينَ، وَهُمْ غَايَةٌ فِي النُّدْرَةِ، وَقَلَّمَا يُولَدُ أَحَدٌ مِنَ الْمُخَلَّدِينَ إِلَّا فِي فَتَرَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ مِنَ الزَّمَنِ. وَلَهُمْ شَارَةٌ يُوسَمُونَ بِهَا — مُنْذُ وِلَادَتِهِمْ — فَإِذَا وُلِدَ طِفْلٌ، وَرَأَيْتَ عَلَى حَاجِبِهِ الْأَيسر بُقْعَةً حَمْرَاءَ مُسْتَدِيرَةً، أَدْرَكْتَ أَنَّهُ مِنَ الْخَالِدِينَ، فَهذِهِ السِّمَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ لَنْ يَمُوتَ. وَلَا يَزِيدُ حَجْمُ الْوَسْمِ عَنْ حَجْمِ الْقِرْشِ، ثُمَّ يَكْبُرُ وَيَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ تبعًا لِسِنِّ صَاحِبِهِ.

فَإِذَا بَلَغَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ اخْضَرَّ لَوْنُ الْوَسْمِ، وَمَتَى وَصَلَ إِلَى الْعِشْرِينَ اسْتَحَالَ إِلَى الزُّرْقَةِ، فَإِذَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَصْبَحَ لَوْنُهُ حَالِكَ السَّوَادِ، وَاتَّسَعَ حَجْمُهُ حَتَّى أَصْبَحَ فِي مِثْلِ اسْتِدَارَةِ «الشِّلِنِ». وَمَتَى بَلَغَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ السِّنَّ ثَبَتَ لَوْنُ الْوَسْمِ وَحَجْمُهُ، فَلَا يَتَغَيَّرُ إِلَى الْأَبَدِ.»



ثُمَّ اسْتَأْنَفَ كَلَامَهُ قَائِلًا: «وَقَلَّمَا تَجِدُ وَاحِدًا فِي جَبْهَتِهِ تِلْكَ السِّمَةُ، لِأَنَّ عَدَدَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ — كَمَا قُلْتُ لَكَ — ضَئِيلٌ جِدًّا بِالْقِيَاسِ إِلَى جَمْهَرَةِ الْأَهْلِينَ، وَلَيْسَ يَزِيدُ عَدَدُ الْخَالِدِينَ — فِي بِلَادِنَا كُلِّهَا — عَلَى مِائَتَيْنِ وَأَلْفٍ مِنْ ذُكُورٍ وَإِنَاثٍ، وَلَيْسَ فِي حَاضِرَتِنَا هَذِهِ مِنَ الْخَالِدِينَ وَالْخَالِدَاتِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِينَ، وَقَدْ وُلِدَتْ طِفْلَةٌ مُنْذُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ عَلَى جَبْهَتِهَا سِمَةُ الْخُلُودِ.

وَرُبَّمَا حَسِبْتَ أَنَّ أُولَئِكَ الْخَالِدِينَ وَقْفٌ عَلَى بَعْضِ الْأُسَرِ. وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ كُلَّ أُسْرَةٍ عُرْضَةٌ لِأَنْ يُولَدَ فِيهَا الْخَالِدُونَ، وَهُمْ يُولَدُونَ مُصَادَفَةً وَكَمَا اتَّفَقَ. وَمِنَ الشَّائِعِ الْمَأْلُوفِ أَنْ يَلِدَ الْخَالِدُونَ أَبْنَاء فَانِينَ، وَأَنْ يُنْجِبَ الْفَانُونَ أَبْنَاء خَالِدِينَ!»

(٣) دَهْشَةُ جَلِفَر

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ — لِحُسْنِ حَظِّي — يَعْرِفُ لُغَةَ «بالنيارب» الَّتِي تَعَلَّمْتُهَا وَأَصْبَحْتُ أُجِيدُ التَّحَدُّثَ بِهَا. وَكَانَ يَقُصُّ عَلَيَّ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّائِقَ الْمُعْجِبَ بِتِلْكَ اللُّغَةِ؛ فَلَمْ تَفُتْنِي كَلِمَةٌ

وَاحِدَةٌ مِنْهُ، وَتَمَلَّكَنِي الْعَجَبُ، وَتَعَاظَمَتْنِي الْحَيْرَةُ مِمَّا قَالَ، وَكَادَتْ أُذُنَايَ تَشُكَّانِ فِيمَا تَسْمَعَانِ. وَاشْتَدَّ إِعْجَابِي وَغِبْطَتِي بِهَؤُلَاءِ الْمُخَلَّدِينَ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: «يَا لَكُمْ مِنْ أُمَّةٍ مَوْفُورَةِ السَّعَادَةِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ فِيهَا خَلِيقٌ أَنْ يُؤَمِّلَ فِي الْخُلُودِ. وَأَيُّ أُمْنِيَةٍ حَبِيبَةٍ إِلَى نَفْسِ بَنِي الْإِنْسَانِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُخَلَّدًا عَلَى الدَّهْرِ، يَمْرَحُ فِي حَيَاةٍ بِلَا رَدًى، وَيُلَقِّنُ ذَرَارِيَّهُ الْحِكْمَةَ وَالْمَعْرِفَةَ!

لَقَدْ خَلَصَتْ حَيَاةُ هَؤُلَاءِ الْخَالِدِينَ — بِلَا شَكٍّ — مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ وَالْآلَامِ، وَصَفَتْ مِنَ الْأَدْرَانِ وَالْأَكْدَارِ، وَبَرِئَتْ عُقُولُهُمْ مِنْ جَالِبَاتِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ طَرَحُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمُ الْيَأْسَ وَالْقُنُوطَ، وَسَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحُوا لَا يَحْذَرُونَ الْمَوْتَ وَلَا يَرْهَبُونَ الْفَنَاءَ، فَهَلْ يُتَاحُ لِي أَنْ أَظْفَرَ بِرُؤْيَةِ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ السُّعَدَاءِ الْخَالِدِينَ؟ وَكَيْفَ خَلَا بَلَاطُ الْمَلِكِ مِنْهُمْ؟ فَمَا أَذْكُرُ أَنَّنِي رَأَيْتُ سِمَةَ الْخُلُودِ عَلَى جَبهَةِ أَحَدٍ مِنْ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ، وَلَوْ رَأَيْتُهَا لَاسْتَرْعَتِ انْتِبَاهِي.

وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ أَغْفَلَ الْمَلِكُ ذَلِكَ، وَهُوَ — فِيمَا رَأَيْتُ — عَاقِلٌ حَكِيمٌ، بَعِيدُ النَّظَرِ، سَدِيدُ الرَّأْيِ؟ وَعَجِيبٌ أَلَّا يَسْتَوْزِرَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَوْ يَتَّخِذَهُ لَهُ سَمِيرًا؛ فَيَكُونَ لَهُ ثِقَافًا يَرْشُدُ بِهِ رَأْيُهُ، وَيَسْتَقِيمُ بِمَشُورَتِهِ مُلْكُهُ، إِنَّ إِخْلَاصِي وَحُبِّي لِجَلَالَتِهِ لَيُحَتِّمَانِ عَلَيَّ أَنْ أُكَاشِفَهُ بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ، فَإِذَا أَبَى أَنْ يَأْخُذَ بِهَا، فَلَنْ أُضَيِّعَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ النَّادِرَةَ الَّتِي أَتَاحَهَا لِي اللهُ لِأَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَيَاتِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ الْخَالِدِينَ. وَإِنِّي لَأَدْعُو اللهَ — جَاهِدًا — أَنْ يَتَنَزَّلُوا فَيَقْبَلُونِي بَيْنَهُمْ عَشِيرًا، وَيَرْتَضُونِي — فِي زُمْرَتِهِمْ — صَاحِبًا مُسْتَشِيرًا.»

(٤) أَحْلَامُ جَلِفَر

وَكَانَ صَاحِبِي يُنْصِتُ إِلَى حَدِيثِي، وَعَلَى فَمِهِ ابْتِسَامَةٌ تَشِفُّ عَنِ اقْتِنَاعِهِ بِغَيْرِ مَا أَقُولُ. وَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ كَلَامِي، رَغِبَ إِلَيَّ أَنْ أَسْمَحَ لَهُ بِتَرْجَمَةِ حَدِيثِي لِرِفَاقِهِ فَأَذِنْتُ لَهُ. وَلَمْ يُتِمَّ تَرْجَمَتَهُ حَتَّى دَارَ بَيْنَهُمْ حِوَارٌ طَوِيلٌ لَمْ أَفْهَمْ مِنْهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَلَكِنَّنِي عَلِمْتُ — فِيمَا بَعْدُ — أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِمَّا سَمِعُوهُ أَشَدَّ الْعَجَبِ!

ثُمَّ قَالَ لِي صَاحِبِي: إِنَّ صَحْبَه قَدِ ابْتَهَجُوا بِمَا سَمِعُوهُ مِنَ الْآرَاءِ الطَّرِيفَةِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا لَهُ وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَعَرَّفُوا رَأْيِي فِي مَزَايَا الْخُلُودِ وَسَعَادَةِ الْخَالِدِينَ، وَهُمْ يَسْأَلُونَنِي: مَاذَا أَصْنَعُ إِذَا قُدِّرَ لِي أَنْ أَكُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ؟ وَأَيُّ سَبِيلٍ أَنْهَجُهُ إِذَا كُتِبَتْ لِي تِلْكَ السَّعَادَةُ؟

فَقُلْتُ لَهُ: «لَقَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ بِهَذَا السُّؤَالِ، فَقَدْ شَغَلَتْنِي أَحْلَامُ الْخُلُودِ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أُسْلَكَ فِي زُمْرَةِ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ. وَلَوْ كُتِبَ لِي هَذَا الشَّرَفُ الْعَظِيمُ، لَكَانَ أَكْبَرَ مَا يَعْنِينِي أَنْ أَعِيشَ غَنِيًّا مَوْفُورَ الثَّرَاءِ. وَلَنْ أَعْدِمَ وَسِيلَةً لِلْغِنَى؛ فَإِنَّ الْقَصْدَ فِي الْعَيْشِ، وَالْأَمَانَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ سَتُبَلِّغُنِي هَذِهِ الْغَايَةَ. وَلَنْ أَبْلُغَ الْمِائَتَيْنِ حَتَّى أَصِلَ بِهَذِهِ الْخِلَالِ النَّبِيلَةِ إِلَى مَوْفُورِ الْغِنَى.

وَلَنْ أَتْرُكَ فُرْصَةً تَمُرُّ — مُنْذُ طُفُولَتِي — إِلَّا انْتَهَزْتُهَا فِي مُوَاصَلَةِ الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ، حَتَّى أُصْبِحَ أَحْكَمَ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ. وَلَنْ يَفُوتَنِي أَنْ أَبْذُلَ جُلَّ عِنَايَتِي فِي تَدْوِينِ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ الْخَطِيرَةِ، وَاسْتِخْلَاصِ وُجُوهِ الْعِبَرِ فِيهَا، وَمُرَاقَبَةِ الدُّوَلِ فِي أَدْوَارِ رِفْعَتِهَا وَخُمُولِهَا، وَسُمُوِّهَا وَانْحِطَاطِهَا، وَالتَّأَمُّلِ فِي أَسْبَابِ نَعِيمِهَا وَشَقَائِهَا، وَتَسْجِيلِ أَخْلَاقِهَا وَنَزَعَاتِهَا، وَأَثَرِ ذَلِكَ فِي رُقِيِّهَا وَتَدَهْوُرِهَا. وَسَأَحْرِصُ عَلَى دَرْسِ شَرَائِعِهَا وَنُظُمِهَا دَرْسًا مُسْتَفِيضًا، وَأَتَعَرَّفُ — عَنْ كَثَبٍ — آثَارَ اللَّهْوِ وَعَوَاقِبَ التَّرَفِ فِي أَبْنَائِهَا.

وَسَيَهْدِينِي الدَّرْسُ وَالتَّجَارِبُ إِلَى الرُّشْدِ وَالْحِكْمَةِ، وَأُصْبِحُ — بِفَضْلِ مَا أُوتِيتُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخِبْرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ — قَائِدَ أُمَّتِي، وَوَحْيَ رَشَادِهَا، وَرَائِدَ تَوْفِيقِهَا، وَرَسُولَ هِدَايَتِهَا.

وَسَأَتَخَيَّرُ اثْنَي عَشَرَ رَفِيقًا مِنَ الْخَالِدِينَ، آنَسُ بِهِمْ وَأُنَادِمُهُمْ، وَأَتَعَهَّدُهُمْ بِالرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ، وَأَمُدُّهُمْ بِالْمَالِ كُلَّمَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ، وَأَدْعُوهُمْ إِلَى مَائِدَتِي لِيَشْرَكُونِي فِي طَعَامِي كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ أُطِيلُ التَّأَمُّلَ فِي ذَرَارِيِّهِمْ، وَأَشْهَدُ آبَاءَهُمْ يَمُوتُونَ وَأَبْنَاءَهُمْ يَخْلُفُونَهُمْ؛ فَأَرَى فِي ذَلِكَ مَنْظَرًا عَجَبًا، ويَتَمَثَّلُ لِي أَنَّنِي بُسْتَانِيٌّ يَتَأَمَّلُ فِي حَدِيقَتِهِ، وَيَرَى فِيهَا أَلْوَانَ الْأَزْهَارِ وَهِيَ تَزْدَهِرُ وَتَذْبُلُ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهَا نَضْرَتُهَا مَرَّةً أُخْرَى.

وَسَيَكُونُ حَدِيثِي مَعَ الْخَالِدِينَ — مِنْ أَمْثَالِي — حَدِيثًا نَافِعًا يَعُودُ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْخَيْرِ الْعَمِيمِ؛ لِأَنَّنَا سَنَعْرِفُ كَيْفَ نُدَوِّنُ مُذَكَّرَاتِنَا عَنِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، وَمَا أَصَابَ الْجِنْسَ الْإِنْسَانِيَّ مِنْ وَيْلَاتٍ وَنَكَبَاتٍ بِسَبَبِ تَهَوُّرِهِ وَطَيْشِهِ وَحَمَاقَتِهِ؛ فَنَصِفُ الدَّوَاءَ لِحَسْمِ الدَّاءِ،

وَلَا نَأْلُو جُهْدًا فِي إِرْشَادِ النَّاسِ إِلَى طَرَائِقِ الرُّشْدِ وَالسَّدَادِ، لِنُنْقِذَهُمْ مِنْ جَالِبَاتِ الشَّقَاءِ وَالتَّدَهْوُرِ.

وَمِنَ الْمَبَاهِجِ وَالْمُتَعِ الَّتِي أَظْفَرُ بِهَا — إِذَا كُتِبَ لِيَ الْخُلُودُ — أَنْ أُبْهِجَ نَفْسِي وَفِكْرِي بِمَا أَرَاهُ مِنْ تَقَلُّبِ حَالَاتِ الدُّوَلِ، وَمَا أَشْهَدُهُ مِنْ أَطْوَارِهَا؛ فَأَرَى كَيْفَ تَسْتَحِيلُ الْمُدُنُ الْعَامِرَةُ إِلَى يَبَابٍ قَفْرٍ، وَكَيْفَ تَسْتَعِيدُ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَزِينَتَهَا، وَتَلْبَسُ الْقِفَارُ الْمُوحِشَةُ ثِيَابَ الْعُمْرَانِ، وَتُصْبِحُ حَوَاضِرَ آهِلَةً بِالسُّكَّانِ، مُزْدَهِرَةً بِالرِّيَاضِ النَّضِيرَةِ، فَيَتَّخِذَهَا الْمُلُوكُ مُقَامًا لَهُمْ، وَكَيْفَ تَسْتَحِيلُ الْأَنْهَارُ إِلَى غُدْرَانٍ لَا خَطَرَ لَهَا، وَكَيْفَ تَرْحَلُ السَّعَادَةُ عَنْ قُطْرٍ لِتَحُلَّ فِي قُطْرٍ آخَرَ، وَكَيْفَ تَشْقَى الْمُدُنُ وَتَسْعَدُ كَمَا يَشْقَى أَهْلُوهَا وَيَسْعَدُونَ. وَكَيْفَ تَتَعَاقَبُ عَلَى الشُّعُوبِ أَدْوَارٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِلْمِ، فَتَسُودُ الْهَمَجِيَّةُ بِلَادًا مُتَحَضِّرَةً كَانَتْ رَمْزًا لِلرِّفْعَةِ وَالْمَجْدِ، وَمَنَارًا لِلْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَتَتَحَضَّرُ بِلَادٌ أُخْرَى، وَتُفِيقُ مِنْ سُبَاتِهَا وَتَسْتَرِدُّ سَابِقَ مَجْدِهَا وَتَالِدَ فَضْلِهَا، وَيُصْبِحُ أَهْلُهَا سَادَةً أَعِزَّةً قَادِرِينَ فِي الْأَرْضِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا عَبِيدًا أَذِلَّةً مُمْتَهَنِينَ.»

(٥) شَقَاءُ الْمُخَلَّدِينَ

وَلَمْ أَنْتَهِ مِنْ حَدِيثِي حَتَّى تَرْجَمَهُ صَاحِبِي إِلَى رِفَاقِهِ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكُوا أَنْ يَعْجَبُوا وَيَدْهَشُوا مِمَّا سَمِعُوهُ، وَشَاعَتْ الِابْتِسَامَاتُ عَلَى شِفَاهِهِمْ. وَقَدِ الْتَمَسُوا لِيَ الْعُذْرَ فِي خَطَئِي، لِجَهْلِي بِمَا يَلْقَاهُ الْمُخَلَّدُونَ فِي بِلَادِهِمْ مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ وَأَفَانِينِ الشَّقَاءِ الَّتِي لَا تَدُورُ بِخَاطِرِ غَرِيبٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْهَا عَنْ كَثَبٍ.

ثُمَّ طَلَبُوا إِلَى صَاحِبِي أَنْ يُزِيلَ اللَّبْسَ، وَيُظْهِرَنِي عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ، وَيَقِفَنِي عَلَى مَا يُكَابِدُهُ الْخَالِدُونَ فِي بِلَادِهِمْ مِنْ أَلْوَانِ الْأَذَى وَالشَّقَاءِ.

فَقَالَ لِي مُتَعَجِّبًا: «إِنِّي أَلْتَمِسُ لَكَ الْعُذْرَ فِيمَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ مِنْ آرَاءٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الصَّوَابِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ — فِي غَيْرِ هَذِهِ الْبِلَادِ — يَحْلُمُونَ بِالْخُلُودِ فِي الدُّنْيَا وَيَعُدُّونَهُ أَشْهَى أُمْنِيَّةٍ، وَلَوْ رَأَوْا مَا يَلْقَاهُ الْخَالِدُونَ عِنْدَنَا مِنَ التَّعَاسَةِ وَالْأَلَمِ، لَمَا نَازَعَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى الْخُلُودِ، وَلَا فَكَّرُوا فِيهِ، وَلَأَصْبَحَ الْخُلُودُ أَبْغَضَ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ. وَلَقَدْ زُرْتُ بِلَادَ «الْيَابَانِ» فَرَأَيْتُ أَهْلِيهَا يَتَحَدَّثُونَ

عَنِ الْخَالِدِينَ فِي بِلَادِنَا، وَيَغْبِطُونَهُمْ عَلَى السَّعَادَةِ الْوَهْمِيَّةِ الَّتِي يَتَخَيَّلُونَهَا وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ قَسَمَهَا اللهُ لَهُمْ!



وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَدْهَشُونَ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا هُوَ غَايَةُ مَا تَصْبُو نُفُوسُهُمْ إِلَى تَحْقِيقِهِ؛ فَهُمْ يَجْزَعُونَ مِنَ الْمَوْتِ، وَيُحِبُّونَ الْحَيَاةَ حُبًّا جَمًّا. وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا سَمِعْنَاهُ مِنْكَ. وَلَوْلَا وُجُودُ الْمُخَلَّدِينَ فِي بِلَادِنَا، وَمَا رَأَيْنَاهُ بِأَعْيُنِنَا مِنْ شِقْوَتِهِمْ وَتَعَاسَتِهِمْ، لَمَا خَالَفْنَاكَ فِي رَأْيِكَ؛ فَإِنَّكَ تُحَدِّثُنَا بِسَعَادَةٍ خَيَالِيَّةٍ لَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا فِي عَالَمِ الْوَهْمِ، وَكَأَنَّمَا حَسِبْتَ أَنَّ الْخَالِدِينَ يَقْضُونَ حَيَاةً فَتِيَّةً، مَوْصُولَةَ الشَّبَابِ، مُتَجَدِّدَةَ الْقُوَّةِ، لَا يَعْتَورُهَا مَرَضٌ، وَلَا تُدْرِكُهَا شَيْخُوخَةٌ. وَهذِهِ أُمْنِيَّةٌ بَعِيدَةُ الْمَنَالِ.

إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَرْهَبُونَ الْأَجَلَ، وَيَخْشَوْنَ الْمَوْتَ؛ فَإِذَا كُتِبَ لَهُمُ الْخُلُودُ — كَمَا كُتِبَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُحَدِّثُكَ عَنْهُمْ — تَمَنَّوُا الْمَوْتَ، وَرَأَوْا فِيهِ أَكْبَرَ رَاحَةٍ مِنْ آلَامِهِمْ وَأَمْرَاضِهِمْ. فَإِنَّ الْمُخَلَّدِينَ عِنْدَنَا يَظَلُّونَ أَصِحَّاءَ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا الثَّلَاثِينَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ سَارُوا فِي طَرِيقِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ. وَمَتَى بَلَغُوا الثَّمَانِينَ أَسْلَمَتْهُمُ الشَّيْخُوخَةُ إِلَى الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وَرُبَّمَا أَسْلَمَتْهُمْ إِلَى الْهُتْرِ وَالْجُنُونِ؛ فَيَقْضُونَ حَيَاةً مُنَغَّصَةً لَا تَنْتَهِي، وَيُعَانُونَ — مِنَ الْآلَامِ

الْهَرَمِ — مَا يُعَانُونَ، وَلَا يَجِدُونَ سَلْوَى يَتَعَزَّوْنَ بِهَا فِي الْحَيَاةِ — حِينَئِذٍ — لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فِي غُرْبَةٍ عَمَّنْ يَكْتَنِفُهُمْ مِنَ النَّاسِ، بَعْدَ أَنْ مَاتَ أَهْلُ جِيلِهِمْ، وَفَنِيَ مُعَاصِرُوهُمْ. وَيَظَلُّونَ طُولَ حَيَاتِهِمْ فِي لَجَاجٍ وَعِنَادٍ، وَهَمٍّ وَغَضَبٍ، وَثَرْثَرَةٍ مُضْجِرَةٍ، وَلَهْفَةٍ مُضْنِيَةٍ عَلَى أَيَّامِ الشَّبَابِ الذَّاهِبَةِ، تَتَآكلُ صُدُورُهُمْ حَسْرَةً، إِذْ يَرَوْنَ حِرْمَانَهُمْ وَعَجْزَهُمْ عَنْ مُشَارَكَةِ الْأَحْيَاءِ فِي مَبَاهِجِهِمْ وَأَفْرَاحِهِمْ. ثُمَّ تَزْدَادُ آلَامُهُمْ كُلَّمَا شَيَّعُوا جِنَازَةً، وَيَلْعَنُونَ حَظَّهُمُ التَّعِسَ الَّذِي أَبَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَظْفَرُوا بِلَذَّةِ الْمَوْتِ، وَيَنْعَمُوا بِرَاحَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ، وَلَا تَزَالُ ذَاكِرَتُهُمْ تَضْمَحِلُّ حَتَّى تَنْسَى كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا تَبْقَى فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا أَخْلَاطٌ مُضْطَرِبَةٌ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ، وَأَشْتَاتٌ مُبَعْثَرَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ مِمَّا حَفِظُوهُ فِي شَبَابِهِمْ.

عَلَى أَنَّ سَوَادَهُمْ يَفْقِدُ ذَاكِرَتَهُ فُقْدَانًا تَامًّا، وَيَحُلُّ بِهِ الْهُتْرُ، فَيُصْبِحُ أَحَقَّ إِنْسَانٍ بِالرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ.

فَإِذَا تَزَوَّجَ خَالِدٌ مِنْ خَالِدَةٍ فَلَنْ يَزِيدَ أَمَدُ زَوَاجِهِمَا عَلَى سِنِّ الثَّمَانِينَ، ثُمَّ تَنْفَصِمُ عُرَى الزَّوَاجِ — كَمَا تَقْضِي بِذَلِكَ شَرَائِعُ بِلَادِنَا — مَتَى وَصَلَ أَصْغَرُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى هَذِهِ السِّنِّ.

عَلَى أَنَّ بَعْضَ التُّعَسَاءِ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْخُلُودُ — عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُمْ — يُؤْثِرُونَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا مِنْ فَانِيَاتٍ غَيْرِ خَالِدَاتٍ، حَتَّى لَا يَزِيدُوا حَيَاتَهُمْ تَعَاسَةً وَشَقَاءً. وَمَتَى بَلَغَ الْخَالِدُ سِنَّ الثَّمَانِينَ اعْتَبَرَتْهُ شَرَائِعُنَا فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ، وَأَذِنَتْ لِوَرَثَتِهِ فِي الِاسْتِيلَاءِ عَلَى أَمْلَاكِهِ، وَلَمْ تَسْمَحْ لَهُ الشَّرَائِعُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَكْفُلُ لَهُ الْقُوتَ.



أَمَّا الْفُقَرَاءُ مِنَ الْخَالِدِينَ، فَإِنَّ الْجُمْهُورَ يَعُولُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعْمَلُوا عَمَلًا فِي الْحَيَاةِ، وَلَا يَقْبَلُ الْقَضَاءُ شَهَادَتَهُمْ. وَمَتَى وَصَلَ الْخَالِدُ إِلَى التِّسْعِينَ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ، وَفُضَّ فُوهُ؛ فَلَا يَشْعُرُ بِلَذَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَتَنْتَابُهُ الْأَمْرَاضُ وَالْعَاهَاتُ وَالْعِلَلُ، وَيَنْسَى أَسْمَاءَ أَصْدِقَائِهِ وَخُلَصَائِهِ، وَيَعْجِزُ عَنِ الْقِرَاءَةِ؛ لِأَنَّ ذَاكِرَتَهُ لَا تَعِي — فِي تِلْكَ السِّنِّ — حَرْفًا مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ، بَلْهَ جُمْلَةً مِنَ الْجُمَلِ. وَثَمَّةَ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ غُرَبَاءَ فِي الْقَرْنِ التَّالِي، وَيَعْجِزُونَ عَنْ فَهْمِ مُحَدِّثِيهِم عَجْزًا تَامًّا؛ لِأَنَّ لُغَتَنَا فِي تَغَيُّرٍ وَتَبَدُّلٍ دَائِمَيْنِ، فَلَا يَنْقَضِي عَلَيْهَا قَرْنٌ كَامِلٌ حَتَّى تَتَغَيَّرَ أَلْفَاظُهَا تَغَيُّرًا يَكَادُ يَكُونُ تَامًّا.»

(٦) حَدِيثُ الْمُخَلَّدِينَ

وَأَرَادَ مُحَدِّثِي أَنْ يُثْبِتَ لِي صِدْقَ قَوْلِهِ؛ فَأَرَانِي سِتَّةَ رِجَالٍ مِنَ الْمُخَلَّدِينَ تَتَفَاوَتُ أَسْنَانُهُمْ، وَلَا يَقِلُّ أَصْغَرُهُمْ عَنْ مِائَتَيْ عَامٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ عَجِبْتُ مِنْهُمْ أَشَدَّ الْعَجَبِ، وَرَثَيْتُ لِحَالِهِمْ، فَقَدْ أَخْبَرَهُمْ مُحَدِّثِي أَنَّنِي سَائِحٌ كَبِيرٌ؛ فَلَمْ يَعِ كَلَامَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يُوَجِّهَ إِلَيَّ سُؤَالًا، وَاكْتَفَوْا بِطَلَبِ تَذْكَارٍ مِنِّي، فَمَنَحْتُهُمْ مَا طَلَبُوهُ. وَإِنَّمَا لَجَئُوا إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي طَلَبِ الْإِحْسَانِ مُضْطَرِّينَ؛ لِأَنَّ الْحُكُومَةَ تُحَرِّمُ أَنْ يَحْتَرِفَ الشِّحَاذَةَ أَحَدٌ مِنَ الشَّعْبِ، بَعْدَ أَنْ كَفَلَتْ لِلْعَجَزَةِ أَقْوَاتَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَا تُجْرِيهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ غَايَةً فِي التَّفَاهَةِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ الشَّعْبَ يَنْفُرُ مِنْ رُؤْيَةِ الْخَالِدِينَ، وَيَحْتَقِرُهُمْ وَيُبْغِضُهُمْ وَيَعُدُّ كُلَّ مَوْلُودٍ مِنْهُمْ نَذِيرَ شُؤْمٍ وَخَرَابٍ، وَقَدْ عُنِيَتِ الْحُكُومَةُ بِتَسْجِيلِ تَارِيخِ وِلَادَتِهِمْ فِي دَفَاتِرَ بِعَيْنِهَا. عَلَى أَنَّ تَوَارِيخَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ عَامٍ، وَقَدْ تَلِفَ بَعْضُهَا بِسَبَبِ الْإِهْمَالِ أَوِ الْحَرِيقِ أَوِ الثَّوْرَةِ. وَثَمَّةَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى يَتَعَرَّفُونَ بِهَا أَعْمَارَ الْخَالِدِينَ، وَهِيَ أَنْ يَسْأَلُوا الْخَالِدَ عَمَّنْ يَذْكُرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ، فَإِذَا ذَكَرَ اسْمَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ سِنَّ الثَّمَانِينَ فِي عَهْدِهِ.

وَلَمْ أَرَ أُولَئِكَ الْمُخَلَّدِينَ حَتَّى تَأَلَّمْتُ لَهُمْ أَشَدَّ الْأَلَمِ، وَخَجِلْتُ مِنْ نَفْسِي أَشَدَّ الْخَجَلِ فِيمَا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْبَقَاءِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْخُلُودِ، وَرَأَيْتُ أَنَّ كُلَّ مَا تَمَثَّلَ لِي مِنْ حَيَاةِ الْخَالِدِينَ خَطَأٌ وَوَهْمٌ بَعِيدَانِ كُلَّ الْبُعْدِ عَنِ الْحَقِيقَةِ، وَرَأَيْتُ فِي الْمَوْتِ مُخَلِّصًا وَمُنْقِذًا مِنْ هَذِهِ الْآلَامِ الْمُضْنِيَةِ الْمُبَرِّحَةِ!

وَأَيُّ مَنْظَرٍ أَدْعَى لِلرِّثَاءِ وَالشَّفَقَةِ مِنْ أَنْ تَرَى شُيُوخًا فَانِينَ، أَبْصَارُهُمْ زَائِغَةٌ حَائِرَةٌ، وَوُجُوهُهُمْ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الدَّمَامَةِ وَالْقُبْحِ، تَجْمَعُ إِلَى التَّشْوِيهِ شُحُوبًا مُفْزِعًا؟ وَتَمْتَازُ نِسَاؤُهُمْ مِنْ رِجَالِهِمْ بِأَنَّهُنَّ أَشَدُّ قُبْحًا وَأَكْثَرُ دَمَامَةً. وَكَأَنَّمَا أَثْقَلَتِ السِّنُونُ كَوَاهِلَ الْمُخَلَّدِينَ فَجَعَلَتْهُمْ يَنُوءُونَ بِحَمْلِهَا، وَأَصْبَحُوا أَقْرَبَ إِلَى أَنْ يَكُونُوا أَشْبَاحًا فَانِيَةً، وَأَطْيَافًا زَائِلَةً، مِنْهُمْ إِلَى أَنْ يَكُونُوا أَنَاسِيَّ وَأَحْيَاءَ يُحِسُّونَ وَيَشْعُرُونَ.

(٧) حِكْمَةُ الْمُشَرِّعِينَ

وَلَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بِمَا دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ رِفَاقِي مِنْ حَدِيثٍ، اسْتَدْعَانِي إِلَيْهِ، وَسَأَلَنِي عَنْ رَأْيِي فِيمَا سَمِعْتُ مِنْ أَحَادِيثِ هَذِهِ الْفِئَةِ الشَّقِيَّةِ التَّاعِسَةِ؛ فَأَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا دَارَ فِي نَفْسِي مِنَ الْآرَاءِ الَّتِي أَسْلَفْتُهَا لِلْقَارِئِ، فَأَقَرَّنِي عَلَيْهَا مُبْتَسِمًا، وَأَحَبَّ أَنْ يُرْسِلَ اثْنَيْنِ مِنَ الْخَالِدِينَ إِلَى بِلَادِي، وَلَكِنَّ شَرِيعَةَ الْبِلَادِ وَقَفَتْ حَائِلًا دُونَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ.

وَلَقَدْ بَدَتْ لِي حِكْمَةُ الْمُشَرِّعِينَ فِي حِرْمَانِ الْمُخَلَّدِينَ مِنْ ثَرَوَاتِهِمْ — بَعْدَ سِنِّ الثَّمَانِينَ — وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ أَصَالَةً وَبُعْدَ نَظَرٍ. وَلَوْلَا هَذَا الْحِرْمَانُ لَاسْتَوْلَى الْمُخَلَّدُونَ عَلَى أَمْلَاكِ الدَّوْلَةِ كُلِّهَا، وَاسْتَحْوَذُوا عَلَى ثَرْوَةِ الْبِلَادِ، وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ تَثْمِيرِ مَالِهِمْ وَتَنْمِيَتِهِ.

وَلَا مَعْدَى لِلْبِلَادِ عَنْ أَنْ تَكِلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَيْدِي الشَّبَابِ الْقَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ، وَلَوْلَا هَذَا الْقَيْدُ لَعَمَّ الْخَرَابُ وَسَادَ الْإِفْلَاسُ.

الْفَصْلُ الثَّامِنُ

(١) هَدَايَا مَلِكِ «لوجناج»

لَعَلَّ الْقَارِئَ قَدْ دَهِشَ مِمَّا سَمِعَهُ مِنْ حَدِيثِ الْمُخَلَّدِينَ. وَمَا أَظُنُّهُ قَدْ سَئِمَ هَذَا الْحَدِيثَ الطَّوِيلَ، أَوِ ارْتَابَ فِي صِدْقِهِ؛ فَإِنَّ فِي قُدْرَةِ أَيِّ سَائِحٍ أَنْ يَذْهَبَ مِنَ «الْيَابَانِ» إِلَى «لوجناج» وَيَتَحَقَّقَ — بِنَفْسِهِ — صِدْقَ مَا رَوَيْتُهُ لَهُ.



وَلَقَدْ سَافَرْتُ مِنْ «لوجناج» إِلَى «الْيَابَانِ»، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ رَأْيَ الْيَابَانِيِّينَ فِي أُولَئِكَ الْخَالِدِينَ، وَلَكِنَّ جَهْلِي تِلْكَ اللُّغَةِ وَقِصَرَ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَيْتُهُ فِي بِلَادِ «الْيَابَانِ» حَالَا دُونَ تَعَرُّفِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ كُتَّابَ «الْيَابَانِ» لَمْ يُغْفِلُوا الْإِشَارَةَ — فِي مُؤَلَّفَاتِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ — إِلَى تِلْكَ الْفِئَةِ؛ فَإِنَّهُمْ — فِيمَا أَعْرِفُ — أَهْلُ تَحْقِيقٍ وَجِدٍّ وَفَهْمٍ.

وَلَقَدْ أَلَحَّ عَلَيَّ مَلِكُ «لوجناج» أَنْ أَبْقَى فِي بِلَادِهِ، وَعَرَضَ عَلَيَّ مَنْصِبًا عَالِيًا فِي بَلَاطِهِ؛ فَاعْتَذَرْتُ مِنْ عَدَمِ قَبُولِهِ. وَلَمَّا رَأَى إِصْرَارِي عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِي أَذِنَ لِي فِي السَّفَرِ، بَعْدَ

أَنْ أَهْدَى إِلَيَّ مِنْ قِطَعِ الذَّهَبِ أَرْبعًا وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعَمِائَةٍ، كَمَا أَهْدَى إِلَيَّ قِطْعَةً كَبِيرَةً حَمْرَاءَ مِنَ الْمَاسِ، وَقَدْ بِعْتُهَا حِينَ عُدْتُ إِلَى «إِنْجِلْتِرَا» بِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْجُنَيْهَاتِ، وَتَفَضَّلَ جَلَالَتُهُ فَكَتَبَ بِخَطِّهِ إِلَى إِمْبَرَاطُورِ «الْيَابَانِ» كِتَابًا يُوصِيهِ بِي. وَكَانَ هَذَا الْكِتَابُ أَثْمَنَ مِنْ كُلِّ مَا أَعْطَانِيهِ مِنَ الْهَدَايَا وَالطُّرَفِ؛ لِأَنَّهُ يَسَّرَ لِي سَبِيلَ الْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِي.

(٢) فِي بِلَادِ «اليابان»

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ يُونْيُو عام ١٧٠٩م مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ «لوجناج» — فِي احْتِرَامٍ وَأَدَبٍ — وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي السَّفَرِ إِلَى بِلَادِي؛ فَأَذِنَ لِي — وَهُوَ يَأْسَفُ عَلَى فِرَاقِي — ثُمَّ وَدَّعْتُ أَصْدِقَائِي الَّذِينَ عَرَفْتُهُمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ.

وَأَمَرَ جَلَالَةُ الْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ وَدَاعِي رَسْمِيًّا بِاحْتِفَالٍ رَائِعٍ؛ فَأَحَاطَتْ بِي جَمْهَرَةٌ مِنْ حَرَسِ جَلَالَتِهِ حَتَّى الْمِينَاءِ الْوَاقِعَةِ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ.

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ — بَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ — إِلَى «اليابان».

وَمَا زَالَتْ سَائِرَةً بِنَا — وَهِيَ تَمْخُرُ عُبَابَ الْبَحْرِ — حَتَّى بَلَغْنَا «اليابانَ» بَعْد نَيِّفٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا.

وَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى الْمِينَاءِ أَخْرَجْتُ كِتَابَ مَلِكِ «لوجناج». وَلَمْ يَرَهُ ضُبَّاطُ الْمِينَاءِ حَتَّى أَحْسَنُوا لِقَائِي، وَعَامَلُونِي كَمَا يُعَامِلُونَ الْوُزَرَاءَ وَالْأُمَرَاءَ، وَأَعَدُّوا لِي مَرْكَبَةً أَقَلَّتْنِي إِلَى الْقَصْرِ الْإِمْبَرَاطُورِي، حَيْثُ شَرُفْتُ بِالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمْبَرَاطُورِ، وَرَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ مَلِكِ «لوجناج»؛ فَرَحَّبَ بِي، وَأَكْرَمَنِي أَحْسَنَ إِكْرَامٍ، ثُمَّ أَمَرَ تَرْجُمَانَهُ أَنْ يَسْأَلَنِي عَمَّا أَطْلُبُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ لِي أُمْنِيَّةٌ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَتَفَضَّلَ جَلَالَتُهُ، فَيَأْمُرَ بَعْضَ أَتْبَاعِهِ أَنْ يُسَهِّلُوا لِي أَسْبَابَ الْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِي.

ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّنِي تَاجِرٌ هولنديٌّ، أَشْرَفْتُ عَلَى الْغَرَقِ، وَلَقِيتُ الْأَهْوَالَ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى «لوجناج». ثُمَّ أَبْحَرْتُ مِنْهَا إِلَى «اليابانِ». وَلَمْ أَكُنْ أَجْهَلُ أَنَّ الهولنديِّينَ يَتَّجِرُونَ مَعَ اليابانيِّينَ، وَأَنَّ السُّفُنَ التِّجَارِيَّةَ لا يَكَادُ يَنْقَطِعُ سَيْرُهَا بَيْنَ الْمَمْلَكَتَيْنِ.

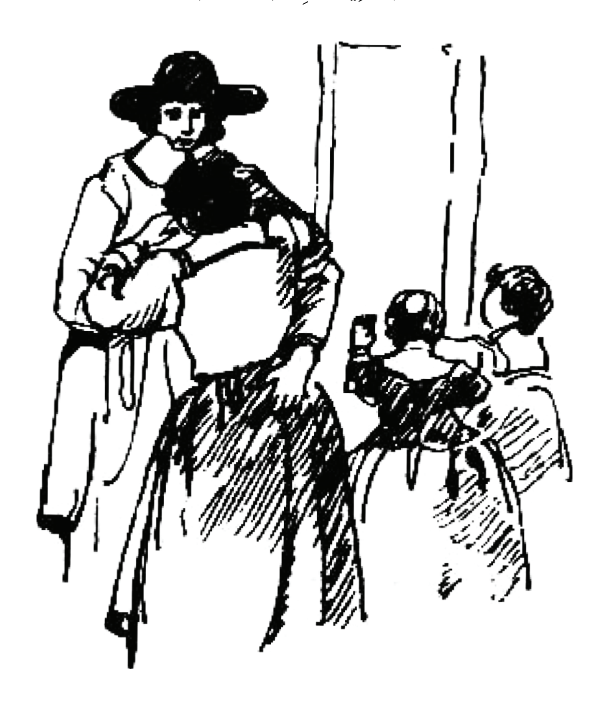
(٣) الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

فَلَمْ يُخَيِّبْ جَلَالَةُ الْإِمْبِرَاطُورِ رَجَائِي، وَأَمَرَ بَعْضَ ضُبَّاطِهِ أَنْ يُسَهِّلَ لِي أَسْبَابَ السَّفَرِ، وَيُوصِيَ بِي رُبَّانَ السَّفِينَةِ.

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ مِنْ شَهْرِ يونيو عام ١٧٠٩م وَصَلْتُ إِلَى «ناجازاكي» — بَعْدَ سَفَرٍ شَاقٍّ مُتْعِبٍ — فَلَقِيتُ جَمَاعَةً مِنَ الهُولنديِّينَ عَلَى أُهْبَةِ السَّفَرِ إِلَى «أَمِسْتِرْدَامَ» حَيْثُ يَعُودُونَ إِلَى أَوْطَانِهِمْ، فَصَحِبْتُهُمْ — فِي سَفَرِهِمْ — بَعْدَ أَنْ أَوْهَمْتُهُمْ أَنَّنِي هُولَنْدِيٌّ مِثْلُهُمْ، وَكَتَمْتُ عَنْهُمْ حَقِيقَةَ أَمْرِي.

وَأَرَدْتُ أَنْ أُعْطِيَ رُبَّانَ السَّفِينَةِ أَجْرَ السَّفَرِ، وَلَكِنَّهُ — حِينَ عَلِمَ أَنَّنِي طَبِيبٌ جَرَّاحٌ — اكْتَفَى بِنِصْفِ الْأَجْرِ، عَلَى أَنْ أُطَبِّبَ الْمَرْضَى فِي أَثْنَاءِ الرِّحْلَةِ. وَمَا زَالَتِ السَّفِينَةُ تَمْخُرُ بِنَا عُبَابَ الْبَحْرِ، حَتَّى بَلَغْنَا رَأْسَ الرَّجَاءِ الصَّالِحِ؛ فَتَزَوَّدْنَا مِنَ الْمَاءِ، ثُمَّ اسْتَأْنَفْنَا الْمَسِيرَ.

وَفِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنْ أبريلَ عام ١٧١٠م بَلَغْنَا «أَمِسْتِرْدَامَ»، وَقَدْ مَاتَ مِنْ رِفَاقِنَا — فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْمُضْنِيَةِ الطَّوِيلَةِ — ثَلَاثَةُ رِجَالٍ، بَعْدَ أَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِمُ السُّقْمُ وَالْمَرَضُ، وَهَوَى رَابِعٌ مِنْ أَعْلَى السَّارِيَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ شَوَاطِئِ «غَانَا»، فَفَاضَتْ رُوحُهُ، وَابْتَلَعَتْهُ الْأَمْوَاجُ؛ فَلَمْ نَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ.



وَلَمَّا بَلَغْتُ «أَمِسْتِرْدَامَ» أَبْحَرْتُ — مِنْ فَوْرِي — إِلَى «إِنْجِلْتِرَا» عَلَى سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ؛ فَوَصَلْتُ إِلَى «دون» فِي الْيَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ أبريل. ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى بَيْتِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي، فَلَقِيَتْنِي زَوْجِي وَوَلَدَايَ وَقَدْ تَمَلَّكَهُمُ السُّرُورُ وَالْفَرَحُ بِعَوْدَتِي سَالِمًا، بَعْدَ أَنْ غِبْتُ عَنْهُمْ عَامًا وَنِصْفَ عَامٍ.


هنداوي